عبدالمنعم المحجوب

أصوات بابل



أصوات بابل

أصوات بابل

مقاربات جينالوجية في اللغة والحراك السوسيوثقافي الأفروآسيوي

عبدالمنعم المحجوب



تانيت

طرابلس – تونس – الجزائر – الرباط

أصوات بابل

مقاربات جينالوجية في اللغة والحراك السوسيوثقافي الأفروآسيوي

عبدالمنعم المحجوب

**

الطبعة الأولى – 2014



تانيت

للنشر والدراسات

طرابلس – تونس – الجزائر – الرباط

I.S.B.N 978-9959-68-036-5

«وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَاناً وَاحِداً ولُغَةً وَاحِدَةً».

(العهد القديم – تكوين: 11، 1)

«لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا بَابِل. لأنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. ومِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُم الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ».

(العهد القديم – تكوين: 11، 9)

**

«رُبَّمَا تَكُونُ أنْوَاعُ لُغَاتٍ هَذَا عَدَدُهَا فِي العَالَمِ ولَيْسَ شَيءٌ مِنْهَا بِلا مَعْنًى».

(العهد الجديد – كورنثوس: 14، 10)

**

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝ وإنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ۝ ﴾

(القرآن – الشعراء: 193 – 196)

(1)

مُقاربات جينالولوجية

في اللغة والحراك السوسيوثقافي الأفروآسيوي

■ **مدخل**

في هذه الورقة[1] ثلاثة موجّهات يمكن ترتيبها كالآتي:

1- إن التآثر اللغوي والاجتماعي الأفروآسيوي كان وما زال ظاهرة لا تخلو منها مرحلة من مراحل التاريخ، بغض النظر عن سجلات هذه الظاهرة، ما حفظته الشواهد الأركيولوجية والأنثروبولوجية، وما لم تحفظه منها.

2- إن مسارات هذا التآثر، جيئة وذهاباً، من شرق وشمال شرق إفريقيا إلى غرب الجزيرة جنوباً وشمالاً، لم تكن أحاديةً، ولا يمكن التسليم بنسقيّتها، استناداً إلى خضوعها لظروف متغيرة، متبدلة، منها ما هو بيئي، ومنها ما هو اجتماعي وديني.

3- إن انعكاس فهم هذا التآثر على البحث العلمي في تاريخ الحضارات وفي اللغويات التاريخية على الأخص، يستند في أغلبه إلى قراءات من خارجه، وضعها ورسّخها غربيّون

1- نص الورقة التي ألقاها الباحث في ندوة الرباط العلمية حول: **التحركات البشرية والهجرات اليمانية إلى الشام وشرق وشمال أفريقيا، قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره**، والتي عقدت بالتعاون بين المركز العالمي للدراسات والأبحاث (طرابلس) والمركز العربي للدراسات الاستراتيجية (دمشق)، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط). نوفمبر 2005.

أو محليّون واصلوا نهجهم وساروا على خطاهم. والكثير من هذه القراءات أنتج مسلّمات للبحث لم نستطع تجاوزها إلا مؤخراً، وأعتقد أننا يجب ألا نتوقف عن مساءلتها في ضوء ما نتوصّل به من نتائج قد تعتبر خاطئةً وفقاً لمنطق البحث التقليدي.

(1) اللغة والحضارة

يعتقد كل شعب أن لغته تتميّز عن لغات غيره من الشعوب، بكمالها، أو بقدسيتها، أو باستطاعتها استيعاب نصوص وآداب أكثر براعةً، كما يعتقد أن غيره من الشعوب يظل أقلّ قدرة منه على امتلاك ناصية التعبير بالكلمات عن المعنوي واللامرئي والغائب.

والنظر إلى اللغة الأم ولغة الآخر على هذا النحو، هو جزء من مخيال وصفيّ عام يتمركز حول الذات، ويشي بتوضيع الآخر على أطراف مسارات التواصل، سالباً منه قدرته على الإسهام في تفعيل هذه المسارات، فالآخرون في مثل هذا الخطاب، القائم على نزع الاعتراف، تعوزهم على الدوام خصائص الاكتمال، وهم يتدرجّون من مرتبة أدنى تُنزَع عنهم فيها صفتهم البشرية، إلى مراتب أكثر اعتدالاً تصفهم بالتخلّف أو الجهل. ومبدأ هذا الخطاب مازال يواصل اشتغاله إلى يوم الناس هذا، إلا أنه قديم قدم اكتشاف البشر لاختلاف ألسنتهم، ويمكننا التفكير في الكثير من الشواهد التي أنتجتها الحضارات كافةً، إلا إنني أحيلكم إلى بليني الأكبر الذي نقل عن هيرودوت أغرب ما يمكن أن يقرأه المرء في تاريخ معرفة الآخر، وأضاف إليه الأكثر غرابة و«إتحافاً».. يقول بليني أن قبائل لوبية من سكان الأطلس لا لسان لها، وأنها «تهمهم» و«تومئ» كي تتمكن من التواصل، وهناك بالطبع صور أخرى (مثل أن قبائل أخرى لا ترى أحلاماً في منامها) ولكن هذا الاقتباس يفي بالغرض.

ومن أقدم الأمثلة على مبدأ سلب الاعتراف بالآخر، أن قدماء المصريين ميّزوا أنفسهم باعتبار أنهم «الناس»، وحدهم، في مقابل اللوبيين أو الآسيويين أو الأفارقة، فكلمة «أناس» كانت تعني المصريين وحدهم متى وردت، لا غيرهم. وخطابهم: نحن

«البشر» الذين لا يعوزهم شيء من الإنسانية، أم الآخرون فلا. كما أن كلمة «الأرض» لم تكن لتعني سوى أرض مصر نفسها.

هكذا أطلق الإغريق كلمة *barbaros* على غيرهم من الشعوب التي لم يتصلوا لغوياً بها، وهي كلمة كانت تدلّ، قبل أن يجري وقفها على هذا المعنى، على العي وعدم استطاعة الكلام بطلاقة، المعنى الذي نكتشفه من مقارنة هذا اللفظ باللفظ اللاتيني *balbus* الذي يدلّ على من يتمتم إذا تكلّم. وكمثال حديث فإن الروس وصفوا الألمانَ بأنهم أصحاب الألسنة المعقودة أو البكم.

لكن الأوصاف المصرية والإغريقية واللاتينية للُغَات الأغراب، لم تكن في الغالب تشمل أولئك الذين يهاجرون ليتوطنوا مصر أو أثينا أو روما، والشعور السائد لم يكن نوعاً من «الإكزنوفوبيا» أو كره الغريب، بل مسألة جغرافيا وعرف وعادة، حتى إن الذين هاجروا إلى مصر ليستقروا بها، يتحدثون لغة شعبها، ويؤمنون بمعتقداتهم، ويمارسون أنماط إنتاجهم، ويرتدون أزياءهم، ويقبلون أنظمة حياتهم، كانوا يتحولون تلقائياً إلى جزء من «الناس» في عرف المصريين، بل قد يتاح لهم الوصول إلى السلطة ليصبح أحدهم ملكاً-إلهاً يمتلك البلاد والعباد.

كلمة «بربر»، إذن، لم يخترها الأمازيغ أنفسهم، وهي في ذلك مثل كلمة شومر أو سومر، التي استعملها الأكديون لوصف جيرانهم، والتي أعتقد أن المصريين القدماء هم من أطلقها بمعنى الحلفاء، من *su* أي الناس، البشر، و *mer* أي الأصدقاء، وأرى أن بحث الأركيولوجيين عن هذه المدينة في العراق سينتهي بلا طائل، لأن سومر ليست سوى صفة لسكان المدن القديمة: أور وأوروك وشروباك وغيرها، دون أن يعني ذلك مكاناً بعينه. وكلمة بربر هي أيضاً مثل كلمة عرب – التي يمكن تأثيلها سومرياً – والقاعدة العامة هي أن أسماء الشعوب مستعارةٌ، وأنها نادراً ما تكون من ابتكار الشعوب نفسها.

لكننا بالاستفاضة في تأمل هذه الكلمة، يمكننا مقاربة مظهر من مظاهر التواصل

اللغوي، وما أودّ الإشارة إليه هنا هو العلاقة بين بربر وبابل (أو: باب إل *bab-el*) التي استقرّ تأويلها في الذاكرة الإنسانية بالعودة إلى البلبلة، من خلال الشرّاح اليهود والعرب.

فالإبدال بين صوتي الراء واللام ظاهرة تسود المتوسط وجواره وما هو أبعد، فكأنما اللسان (بإطلاقه) قابل دائماً لإبدال الصوتين أحدهما بالآخر، بما يتوفّر له من تهيؤ اجتماعي وثقافي، وفي ذلك أمثلة عديدة لا تعدّ ولا تحصى، فـ*Barber* و*Babel* إذن هما هما. وللعرب في تأكيد هذه التسمية – كما كان لليهود – دور ولابد، لقد جعلوا بابل من بلبل، قيل بلبل الله ألسنتهم، أي أنشأ فيها الرطانة فلم يعد أحد يفهم أحداً، وذلك هو أصل التسمية «بربر»، ارتحل إلى اليونانية *Barbaros*.

أما العرب فإنهم جعلوا من الشعوب المحيطة بهم أصحاب رطانات غير مفهومة، فوصفوا الروم بالعجم، وهي كلمة تشترك في نفس الجذر مع الأعاجم، أي الحيوانات البكماء. وأنزلوا لغتهم منزلة مقدسة، فجعلوا لها أصلاً إلهياً، بها كلّم الله أول خلقه، وبها أنزل كتابه، وبها سيتكلم يوم القيامة، ولهم في وصفها وتبجيلها، ببيان تميّزها، مصنّفات كثيرة. كما جعلوا منها أصل اللغات، وهو ما يشتركون فيه مع الطورانيين، واليهود، وغيرهم من الشعوب التي رأت في لغاتها أصولاً تفرعت عنها لغات الأرض. وهو توجّه ميثي رفده البحث العلمي بالركون إلى أصل افتراضي كلما جِيءَ إلى بحث التآثر اللغوي، كما في مثالي: الهندوأوروبية الأم، والسامية الأم.. فالقرابة بين اللغات أدت على الدوام إلى فرضية الأصل الغائب الذي حاول الجميع اكتشافه في لغتهم، وترجيح أمثلته وشواهده بالاعتماد على ثلاثة افتراضات ضمنية: الأول هو الأسبقية الزمنية، أي افتراض وجود لغة مكتملة النمو مؤهلة لأن تضفي تأثيرها على غيرها من اللغات، والثاني هو افتراض نسق أحادي الاتجاه يسمح بالتأثر أو التأثير بين اللغات، لا التآثر المشترك. والثالث: هو قصْر العلاقة بين اللغات على المستويين المعجمي والصرْفي، أي ضمن حدود اللغوي فقط، دون التركيز على دور المعطيات الأنثروبولوجية والإثنية والمعتقدية والتاريخية في هذه العلاقة.

(2) التأويل الميثي للغة

تأخذ اللغة لدى معظم الشعوب سمة الرمز الجمعي باعتبارها مكوّناً ميثياً ميّز شعباً ما عن سواه، أو أفرد لشعب ما استحقاقاً يُخَصّ به فترعاه الآلهة وتباركه، بينما تترك غيرهم من الأقوام يكدحون لينالوا أهليتهم بالعبودية بفعل منجز إنساني، بل أن بعضهم لُعنوا ولا سبيل أمامهم لنيل رضا الآلهة مهما بلغ منجزهم من إعجاز. في التوراة قامت الآلهة بالدفاع عن نفسها بأن شتّتت البشر وبلبلت ألسنتهم كي تستطيع أن تهيمن عليهم إلى الأبد، بعد أن أصبح في إمكانهم أن يتكلموا «لساناً واحداً».

فالإنسان المقيّد إلى الأرض في علاقته بالسماء، وإلى لغته في علاقته بالآخر، يستطيع مضاهاة الآلهة بهذين الشرطين: الارتفاع ووحدة اللغة. فالارتفاع يعني المعرفة، لأنه يجعل الإنسان يطأ سكن الآلهة فيطّلع على معاشها ويكشف أسرارها، ووحدة اللغة تعني أن البشر جميعاً أصبحوا «واحداً» له القدرة على الخلق، لأن اللغة الواحدة هي التي تجمع الآلهة على اختلافها وخلافها، وتعطيها قدرةَ أن تخلق.

والخلْق بالكلمة صورة متكررة في النصوص المقدسة، اليهودية والمسيحية والإسلامية، كما أن عهد الإله مع البشر، هو عهد لغوي، وهو يشكّل أيضاً جزءاً من المشترك الميثي للشرق الأدنى، ضمن مشتركات ميثية أخرى لعل أبرزها الخلق من فخار (صلصال)، أي من لوح الكتابة، بتحويل الكلمات (الروح) إلى أشياء (جسد)، فالصلصال أمام يد الإله هو جسد الإنسان، وأمام يد الإنسان هو جسد الكتابة.

وفكرة الخلق من صلصال، كما هي فكرةُ عهدِ الآلهة، اعتقاد يعود، ضمن معتقدات عديدة أخرى تتمحور حول اللغة والكتابة، إلى السومريين.

لقد كانت الكتابة في معتقدات الشرق القديم هي استظهار المقدّس، وكان الكاتب سيداً وهو الأقرب إلى الآلهة. كان أشوربانيبال يفتخر أن الألهة وهبته «علم الكتابة»، ولكنه كان أيضاً يتمنى الأكثر: أن يقرأ «ألواح ما قبل الطوفان» التي لم يستطع فكّ

رموزها، لأنه لم يكن مهيّأً لمعرفة سرّ التكوين، الذي يعني أيضاً سرّ الخلود، وهو امتياز وُهب لأوتنَبشتِم وحده، وعجز حفيده كِلكَمش عن بلوغه ليعيش بقية عمره مقيّداً بشرط الموت كإنسان فانٍ. أما مع اليونانيين فإن الكتابة ستتحول إلى فعل مدنّس، سيصبح الكاتب عبداً، وفعل الكتابة تحقير لا يليق بالسادة الأثينيين، ونستطيع بدءاً من أفلاطون أن نتحدث عن «الكتابة المدنّسة»، كما يقول جاك دريدا، ربما مع الفينيقيين في البحر المتوسط ستصبح الكتابة فعلاً إنسانياً، وشرطَ معرفةٍ، وتكتسب بعداً حسيّاً جديداً.

إن هذه المظاهر المتعددة، المتباينة، للغة والكتابة تؤشر على ضرورة تأويل قِدم تآثر وتواتر الألسن، باستظهار آلية هجراتها وتنقلاتها. مثلما هو الأمر بالنسبة لإعادة بناء تصور نظري عام لانتشار وتآثر اللغات تاريخياً. وقد كانت المهمة التي اضطلع بها كتابي «ما قبل اللغة» مبعث اعتراضات كثيرة، ولكن ما يعني الكثير بالنسبة لفرضيات هذا الكتاب، هو القيام بما أعتبره خطوة أولى لبدء بحث جاد يُسقط عن نوازعه أصولاً تحكّمت طويلاً في تفكيرنا، أعني على وجه التحديد ما صنعته بنا الأسس الميثية في تناول مسألة اللسان واللغة.

لقد كان عملي في كتاب «ما قبل اللغة» يرتكز على تتبّع واستظهار التغيرات الصوتية (الفونيطيقية) التي أصابت سلسلة الألسن الأفروآسيوية، وأقدم تدوين لها نعثر عليه بالخط المسماري، على ضفاف الفرات، الخط الذي دُوّنت به السومرية والأكديّة وتفرعات هذه الأخيرة. وخلصتُ فيه إلى أن الضمائم الأفروآسيوية متحدّرة من السومرية، وإن المقاطع السومرية المفردة والمثنّاة متوطّنة قارّة في العربية والآرامية والأمازيغية والأمهرية.. وغيرها من بقية لغات الفروع والمجموعات الأفروآسيوية. أما المعجم التأثيلي المتاح الآن فإنه يلبي اشتراطات هذه الفرضية، بدءا من استظهار الفونيمات المفردة إلى الكلمات المقطعية السومرية في تحولاتها التدرّجية إلى جذور ثنائية وثلاثية.

لقد عُدّت السومرية لغة منعزلة، لم تُفلح مقارنتها بالعديد من اللغات المجاورة لها،

ولم تسفر عن شيء. وهذه في الأصل قراءة استشراقية انتشرت وغلبت على الوسط العلمي، فتحدّث بها الدارسون من علماء الأشوريات، وجعلوا التسلسل السامي يبدأ من الأكدية، التي كتبت بالخط المسماري المقطعي الذي كتبت به اللغة السومرية، دون أن يقيموا تماثلاً بين اللغتين، إلا إن تتبّع المقطع السومري يشي بمسارات شتى هاجرت فيها المفردات، تبدّلت وتحوّرت، كَمَنَتْ وظهرت، اتصلت وانعزلت، إلى آخر ذلك من أشكال التآثر والتواصل. وقد نشأت عن هذا المنهج في تتبع وتأثيل اللغة العربية فرضية تذهب إلى أن هذه اللغة كانت قائمة قبل ظهور العرب أنفسهم، أي قبل أن يُعرفوا باسمهم هذا بزمن طويل، وقد يجد الكثيرون أن طرحاً كهذا غير قابل للإثبات تاريخياً، نعم، إننا خارج اللغة لا نجد إلا حدّاً أدنى من الشواهد المباشرة، هذا صحيح، وقد سبق لدي سوسير أن أشار إلى الوهم الكبير الكامن وراء القول بإمكانية العودة عبر العصور لإعادة بناء ألسنة تحدثت بها شعوب ما قبل التاريخ، في عملية تتداخل فيه اللغات بالأنساق الإجتماعية، بحيث يتوزع البحث بين الكلمات والعادات والمعتقدات في توليفة لغوية، أنثروبولوجية، إثنولوجية. لكن اعتراضه كان يتعلق أساساً بالذهاب إلى أبعد مما تتيحه لنا المعرفة اللغوية، كأن نعمد من وراء قرابة لغوية إلى بعث قرابة سلالية أو عرقية (إثنية) لا منطق يسوّغها سوى عدد من التشابهات المعجمية. إننا نستطيع التأكيد على أن مطابقةً ما تجري بين «الحقيقة اللغوية» و«الحقيقة التاريخية» سوف تقود إلى فتح القراءة على تأويلات لا منتهية، إلا أننا نستطيع التأكيد من ناحية أخرى على أن هذين الحدّين تجمعهما تماسات ثابتة هي أوضح من أن يتم إغفالها.

يمكننا أن نلجأ بمنهج استرجاعي إلى إعادة تصور ما تمكن تسميته «وضعاً لغوياً» لمنطقة الشرق الأدنى الذي يشمل شمال الجزيرة وجنوبها، وشمال أفريقيا وشرقها، مع ما يمكن أن يرفده من شواهد أنثروبولوجية وأركيولوجية، وتتيح لنا الصلة بالسومرية إعادة التفكير على أساس الانتشار المتحوّل، دون أن يعني ذلك الوقوع في الإطلاق والتعميم، فالإطلاق والتعميم لا يقودان سوى إلى بعث ميثيّة جديدة.

(3) المثال القرطاجي

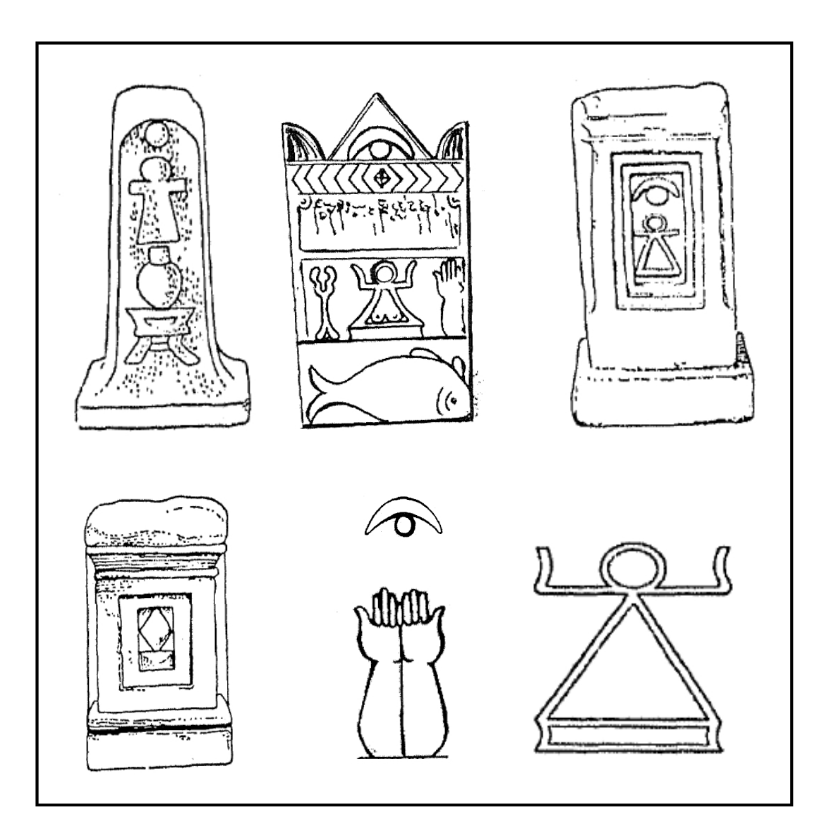
جعل الفينيقيون والإغريق واللاتين حوض البحر المتوسط مجالاً لغوياً متعدداً، ولا يجانبنا الصواب إذا قلنا أنه كان يندر وجود بلد من بلدان المتوسط لم يتجاور فيه لسانين أو أكثر في نفس الوقت. فعندما تأسست قرطاج وانتشرت محطات الفينيقيين التجارية في القرن السابع ق.م. سادت اللغة الكنعانية (الفينيقية) إلى جانب اللغة اللوبية القديمة، لغة السكان الأصليين، وفي مرحلة لاحقة من القرن الثالث ق. م. جاورت اللاتينية هاتين اللغتين، بالإضافة إلى اليونانية التي تحدثها وكتب بها مثقفو قرطاج، وظلت الفينيقية بتأثيرات لوبية منتشرة حتى القرن السابع ب. م. لتحلّ العربية محلها مع الفتح العربي الذي وصل قرطاج نفسها عام 641 وقد كانت آنذاك مجرد أطلال ضخمة تحيط بها قرى صغيرة يسكنها خليط تاريخي تكوّن عبر المراحل الفينيفية الرومانية، أما اللوبية القديمة بما عرفته من تأثيرات فينيقية فقد انحسرت في اللهجات الأمازيغية المحلية التي تأثرت عبر مراحل لاحقة بالعربية أولاً، ثم بالفرنسية بدءا من القرن التاسع عشر، مع التأكيد على أنها قد حملت منذ البدء سمات لغة عربية جنوبية هي السبأية، بالإضافة إلى السمات المصرية القديمة. وهي السمات التي أرى أن يتم البحث عن صيغتها الأولية في السومرية لا في غيرها.

الملاحظ في المثال القرطاجي أن الوحدات اللسانية لم تنحل بفعل نفاذية لغة واحدة، بل حافظت جميع اللغات على وجودها، اليونانية واللاتينية تراجعتا إلى خارج قرطاج، اللوبية انسحبت إلى مواطنها الأصلية متأثرة بالفينيقية، والفينيقية تلاشت بفعل السيادة الكاملة للعربية التي ترسّخت في كل مكان من الشمال الإفريقي، لكن هذه الحدود العامة للتفكير في تجاور اللغات الأربع لا يلغي ما اقتبسته وما تأثرت به بين بعضها البعض، كما لا يلغي أن وجود العربية إلى جانب الأمازيغية قد مدّ الأخيرة بذخيرة معجمية جديدة، استعادت فيها وبها تلك الآصرة الأفروآسيوية المفقودة، وغذتها من جديد.. فإذا ما استثنينا اليونانية واللاتينية اللتين احتلتا شمال إفريقيا ردحاً من الزمن

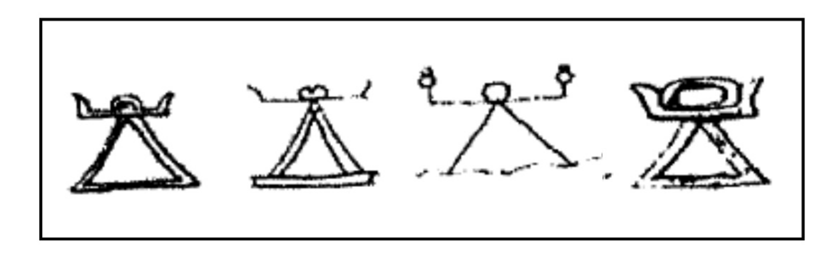
نجد أن العربية واللوبية والفينيقية قد اتصلت أولاً لالتقائها في الأصل الأفروآسيوي البعيد، الذي تلوح السومرية من ورائه كلغة أم، وثانياً لأن اتصالها يستند أيضاً إلى أكثر من التشابهات المعجمية والصرفية، بحيث يمكن القول أنهما ثلاثة أشكال متحوّلة للسان واحد. دون أن يعني ذلك إقامة تطابقات وتشابهات معجمية منتزعة من سياقها الاجتماعي والتاريخي، ذلك لأقول أن القياسات والاقتباسات المعجمية المجرّدة، أي تلك التي لا تدرس الظاهرة اللغوية ضمن اشتراطاتها وتفاعلاتها الاجتماعية والتاريخية، ستكون عاجزة عن فهم ترحال الكلمات والمعاني، من مكان إلى آخر، وفي زمان وآخر، لأنها – بإهمالها لهذا الجانب – تعمل خارج الزمن، أي خارج القابلية الاجتماعية للتطور والتغير، وكل قابلية للتطور والتغيّر خارج هذا التحديد، قد تكون قابلية صائبة من باب تجريدي فقط.. وهو ما لا ينطبق على العلاقة بين الأمازيغية والعربية اللتين لا تتصلان فقط، بل وتكملان فجوة قائمة في تفسير ما مرّ بالمنطقة من حراك اجتماعي وثقافي.

جزْم	مسند	فينيقي	تفيناغ
ت	𐩩	𐤕	ⵜ
ج	𐩴	𐤂	ⵊ
ض	𐩳	𐤑	ⴹ
ل	𐩡	𐤋	ⵍ

مقارنة بين بعض القيم الصوتية



علامات تانيت (قرطاج)



علامات تانيت (بيروت) وهي أكثر قدماً وأقلّ إتقاناً من نظيراتها القرطاجية

الحرف Value	التارقية Tawarek	مراحل محتملة للتطور Probable Stages of Development	الإغريقية Greek	الليبية Libyan
Ā, Ī OR OU	•		O (=OMICRON)	
G	·I·	= T = ⅂Γ	⅂ OR 1	⌐
G		OR =·I = ⅂		
G'	X	= X = X̄		
D	U, ⊔ OR Λ	·Ↄ = D OR ⊐ = Ↄ = D	D OR Δ	∃ OR ⩎
Dh	⊔⊔	= ∃ = ∃ = ∃		
W	:	= = =	F (=DIGAMMA)	=
Z	ⵣ	= ‡ =	I (=Z)	
Z'	#	= Π =		
J	I			
S	⊙		⊙ (=θ)	
Y OR I	≷ OR ∫		≷ OR ∫ (=ι)	
K	⁘ OR ⁘ OR ⁘	= K =	K	
L	II	= /\ =	Λ	
M	Ⅽ	= Σ =	M	
N	I	= ↾ =	↾	
ق	•••	= III = ≡ =	Ξ (=ξ)	III ?
غ	⋮	= ≡ =		≡ ?
R	O OR □		D	
T	+		T	T ?
F	][OR ⋈	= I =	Φ (=Φ)	8
Kh	⁚⁚	= ⌑ OR X	⊟ OR X (=X)	X ?
Sh	Ↄ	= Ↄ = Σ =	≷ (=S)	≷
H	⁝	= ≣ =	≣ (ETRUSCAN)	

الأبجديات اللوبية والتارقية مقارنة بالإغريقية ذات الأصل الفينيقي. المصدر: المعجم اللوبي

(4) القرابة المعتقدية اللغوية

مظهر آخر للتفاعل المعتقدي، يتمثل في أن شمال إفريقيا قد ترسبت فيه المعتقدات الأمومية، والتي تعتبر عبادة الإلهة تانيت، ربة الخصب والنماء، أحد أبرز مظاهرها، ويمكننا هنا أن نلجأ إلى مستويين في فهم التفاعل الأفروآسيوي في هذا الإطار:

1- بالتواصل مع المعتقدات المترياركية في مراحل ضاربة في القدم، وخاصة تلك التي كانت سائدة في بلاد الرافدين والمتمثلة في تجسيد وعبادة الإلهة الأمMother Goddess، نشأت عبادة تانيت.. إن ارتحال طقوس هذه العبادة وتنقلاتها بين المنطقتين يكاد يكون أمراً مجهولاً الآن وغير قابل للتتبع والملاحقة، بفعل الافتقاد إلى المدوّنات اللازمة، سوى ما نجد من نقوش فخارية يمكن استشفاف التصورات المعتقدية من خلالها. ومجال ذلك يمكن تقديره اعتماداً على شواهد أركيولوجية بفترة تمتد منذ القدم إلى الألف السادسة ق. م.

2- في حين ظل تبجيل الإلهة تانيت سائداً في شمال أفريقيا، حصراً وبشكل مباشر بين أواسط ليبيا الحالية وأواسط الأطلس شمالاً، ومعظم مدن وواحات الصحراء الكبرى جنوباً، وهو ما أعرّفه بميثولوجيا الساحل والصحراء، بالإضافة إلى دخول معتقدات بطرياركية جديدة مثل عبادة بعل، الذي قُرن عادةً بتانيت، فإن صحراء الجزيرة كانت أكثر انفتاحاً على تغير وتطور المعتقدات فيها بتأثير الشمال، حتى أن كعبة مكة أصبحت «بانثيون» عربياً يضم مئات الآلهة، بالإضافة إلى «كعبات» أخر، لعل أشهرها «الحديقة» في جنوب الجزيرة.

هذا بالإضافة إلى التأثير المصري.. إننا بتوفر ما يكفي من الشواهد نستطيع الحديث عن تواصل معتقدي بين مصر وصحراء الجزيرة، كما نجد أن حركة ترحال القبائل اللوبية القديمة إلى مصر كانت متصلة، إن على شكل هجرات جماعية، وإن على شكل غزو، عادة ما كان ينتهي باندماج هذه القبائل سلمياً في الجسم الاجتماعي لمصر القديمة،

ويبدو أن نوعاً من السجلّ النّسابي كان سائداً هناك إلى الحد الذي يحتفظ فيه «الأجنبي» بنسابته، حتى وإن وُلد في بلاط الفرعون، ولعلّ مثالنا الأشهر على ذلك هو شيشنق، الفرعون الذي صاهر سليمان النبي، وعبرت جيوشه بلاد ما بين النهرين، خالقاً بذلك أوّل فضاء قارّي أفروآسيوي موحّد. ومجال مرحلة هذا الترحال هي الفترة الواقعة بين أربعة آلاف وألفي سنة ق.م.

3- في مرحلة لاحقة، وكانت الجزيرة قد شهدت ظهور الديانتين الموسوية والعيسوية، قبل مئات السنين من ظهور الديانة المحمدية، وهو ما أنتج تعاظم الحراك الاجتماعي- الثقافي بين المنطقتين، ومهّد لانتشار بؤر اليهودية والمسيحية في مدن وواحات الساحل والصحراء، ولا نكاد نعثر على واقعة ذات أهمية تدلّ على الصراع والاقتتال بين الديانات السابقة، الماترياركية بتأثير بطرياركي غير مكتمل، وبين الديانتين الباطرياركيتين الجديدتين، لقد انسحبت اليهودية لتصنع لها معاقل منتشرة هنا وهناك، وما أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، حتى تحولت إلى دين شعبي في شمال أفريقيا. وعلى عكس المرحلة السابقة تماماً، فإن الكثيرين من أبناء شمال أفريقيا أسهموا في جعل هاتين الديانتين تنتشران وتتسمان بأول أبعادهما القارّية، بل إن بعضهم قد أمدّ المسيحية بروح جديدة جعلت استمرارها ممكناً بعد أن تخاطفت أطرافها الخلافات المذهبية والإقليمية، أعني سانت أوغسطين، على أن اعتناق هذه الديانة أثناء ظهورها مثّل أمام اللوبيين سبيلاً للخلاص من الاحتلال الروماني، وقد رأينا على سبيل المثال سمعان القوريني Simon of Cyrene وهو يهودي تعود أصوله إلى قورينا، ورد ذكره في الإنجيل، وتُرجمت صفته باللغة العربية إلى "القيرواني"، وهي ترجمة خاطئة. ويُذكر في الأدبيات المسيحية أن الجنود الرومان أمروه بحمل صليب المسيح (متى 27: 32، مرقس 15: 21، لوقا 23: 26)، بعد أن خرّ المسيح إعياءً، ويُعدّ أول قدّيس مسيحي من شمال إفريقيا، وقد كان المنكرون صلبَ المسيح يقولون أن سمعان أخذ صورة المسيح وصُلب بدلاً منه.

ولعل ظهور أريوس Arius مؤسّس المذهب الأريوسي، وهو ابن أمونيوس اللوبي، ومن مواليد قورينا سنة 256، قد مثّل أحد أكبر الانشقاقات في المسيحية الإمبراطورية وكان قد أنكر ألوهية المسيح ودعا إلى أقنوم واحد فأدانه المجمع المسكوني الأول بدعوة من الإمبراطور، ولكن انتشار أتباعه في أرجاء كثيرة من الإمبراطورية أرغم الرومان على إزاحته وعدم الإقدام على قتله.

وقد عاصر آريوس الأب الثّوري دونا، مؤسّس المذهب الدوناتي، والأرجح أنهما كانا متصلين، وتتفق الأريوسية مع الدوناتية في التوحيد وإنكار التثليث، وفي القول بالطبيعة الإنسية للمسيح (واحديّة الأقنوم)، في مقابل عقيدة الرومان أي الكاثوليكية التي تؤمن بالتثليث وبالطبيعتين الإنسيّة والإلهية للمسيح (ثنائية الأقنوم). (انظر: المعجم اللوبي).



سمعان القوريني يساعد المسيح، كاتدرائية سان روفائيل، ايوا، الولايات المتحدة



الإمبراطور قسطنطين يحرق كتب الأريوسيين (رسم يعود لعام 825)

مجيء الإسلام بعد ذلك، قلب الموازين رأساً على عقب، لقد آمنت به الغالبية العظمى، وبقدرته على توظيف المقولات، وأشدّها أثراً وفعالية هي مقولة النسخ في المأثرة التي تقول: الإسلام يجبّ ما قبله، أصبح عدم الإيمان به عبئاً على الكاهل، بينما الانتماء إليه يضفي عدداً من المزايا الاجتماعية على الأفراد، وهكذا شهد الساحل والصحراء الأفريقيين تحوّلاً تدريجياً، بعد عمليات الفتح القليلة، المتوزعة هنا وهناك، والتي تُصوّر لنا على يد المستشرقين على أنها اكتساح شامل لم يترك – بقوة السيف – شيئاً يصمد في طريقه.

(5) في الحراك السوسيوثقافي والتواصل

نعرف أن منطقة الجزيرة العربية تمتد من خليج البصرة مروراً ببادية الشام حتى خليج العقبة وصحراء سيناء. وقد تميّز جنوب الجزيرة بموقع بحري أتاح لليمنيين الاتصال بالمصريين والأحباش من خلال البحر الأحمر. على مدى التاريخ، بل إن ترجيحاً علمياً بالغ الأهمية لدى الجيولوجيين يذهب إلى أن شرق أفريقيا وغرب آسيا كانا أقرب إلى الاتصال، ويجعل من هذا البحر مستنقعاً كبيراً كان من الممكن عبوره كبحيرة مغلقة حتى قبل أربعين ألف سنة، وأشير هنا إلى أن التواصل الأفروآسيوي كان خبرةً بريّة، في الأساس، إلى أن أضاف له الفينيقيون خبرتهم البحرية. بل إن الجزيرة أقرب في وجهة نظر الجغرافيين اليونانيين الأوائل إلى إفريقيا منها إلى آسيا، إذ مع الأولى يمكن التفكير في شبه المنحرف، المتضائل تدريجياً، الذي يصنعه البحر الأحمر كفاصل بين القارتين، بينما يجب التفكير في الهوة المتسعة التي يحدثها الخليج العربي كلما اتجهنا جنوباً كفاصل بينهما.

أما الجزيرة في حد ذاتها، فقد كانت، وما زالت، حقْلُ قَحْلٍ كبير، ولكن قسمها الغربي أي الشريط الساحلي لشرق البحر الأحمر، من خليج العقبة شمالاً حتى اليمن جنوباً، كان خلال آلاف الأعوام مساراً مأهولاً حقق للسكان واحداً من أهم أسباب استقرارهم، المسار الذي توطّن المخيال الإسلامي باسم «رحلة الشتاء والصيف».

ومن هنا يمكننا فهم نقط الالتقاء الشهيرة، مثل مكة، باعتبارها بؤراً تلتقي فيها المسارات اللغوية والثقافية والاجتماعية، فلقد توسّطت شمال وجنوب الجزيرة، وامتصت تأثيرات شرق أفريقيا، أما من الناحية الاجتماعية والنّسابية، فإن أساطير عديدة تجعل منها أيضاً بؤرة تلتقي وتذوب فيها الأعراق، قصة إبراهيم، العرب العاربة، كما هو الأمر بالنسبة لقصة بلقيس، التي يُنتسب إلى سليمان عبرها، على سبيل المثال. فالمخيال العربي الجاهلي جعل من هذه المنطقة بالذات جذراً لكل نِسَابةٍ، من بلاد الرافدين إلى أثيوبيا.

وإذا كان التواصل بين جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها مثبَتاً تاريخياً، فإن السؤال يتصل غالباً بالتواصل بين شمال وجنوب الجزيرة وبين شمال وشرق أفريقيا.. فالأول تجتمع فيه الشواهد اللغوية والتاريخية والاجتماعية، أما الثاني فقد كانت تتم إحالته حتى وقت قريب على التواصل اللغوي وحده، دون كبير تركيز على التواصل التاريخي والاجتماعي.

لقد أورد الجغرافي القديم: ستيفانوس البيزنطي، نقلاً عن أورانيوس أن الأحباش من أصل عربي قدموا من إقليم يقع وراء سبأ وحضرموت. ولكن، حتى دون أن نذهب هذا المذهب، يمكننا اكتشاف دلالة هذا النص القديم في المقارنة بين «حبستي» البربائية (الهيروغليفية) وبين «حبش» الحجازية، ومؤدى المعنى في المعجمين: جَمَعَ، وقد رأى گليسر منذ سنة 1895 أن هذه التسمية تطلق منذ القدم على مزارعي وجامعي اللبّان، الذين «يجمعون» (يحبشون) من الأرض وشجرها.

ولا شك أن القبائل الجنوبية من الجزيرة العربية قد عبرت في أزمنة متفاوتة باب المندب إلى سواحل شرق إفريقيا، وأن هؤلاء الرحالة والمتطلّعين قد انتشروا غرباً، مثلما كان غيرهم قد انتشر على امتداد شمال إفريقيا، حتى التقوا معا القبائل التي كانت تسيطر على جنوب الصحراء حتى ضفاف الأطلسي، كما إنهم التقوا واستقروا جنوباً على امتداد بحر العرب وسواحل المحيط الهندي حتى زنجبار وتانجانيقا، وإننا لنجد أسماء المدن اليمانية القديمة ظلّت منتشرة هناك – كما حفظتها سجلات الرحالة العرب لاحقاً – ومنها: سبأ وهَوزن وسراة ومأرب، ولا سبيل إلى تأويل هذا التماثل إلا بترجيح الحراك الاجتماعي الثقافي بين الطرفين، وبالأخص بالاتجاه من الشرق إلى الغرب.

لقد أصبحت منطقة وادي النيل، بعد انحسار آخر عصر جليدي، أو ما يعرف بالجفاف العظيم، قبل 10.000 سنة، وقد كانت قبل ذلك مستنقعاً، صالحةً للتوطّن والاستزراع، كما سبقتها جزيرة ما بين النهرين في ذلك، مما سمح باستقبال الراحلين من الغرب (الصحراء الليبية الآن) ومن الشرق (صحراء الجزيرة العربية الآن)، (المنطقتان

اللتان شهدتا عصوراً مطيرة مصنّفة ولها سجلاتها الجيولوجية والأركيولوجية، وانتشرت في ربوعها أنماط من العيش غلب عليها الصيد واللقْط)، بالاستقرار في أطرافها، شمالاً وجنوباً.

بعد ذلك بستة آلاف سنة، أي في الألف الرابع قبل الميلاد، توحدت مملكتا الشمال والجنوب في مصر، وبرز إلى الوجود واحد من أعظم تراثات الإنسانية. ولكن الحديث عن نقل ثقافات مختلفة من الشرق والغرب إلى مصر هو حديث لا طائل منه، ما لم نتمكن من رصد سجلات هذه الثقافات المهاجرة. لقد كانت خارج التدوين، وهي لهذا السبب تقود إلى اعتبار مصر بعد نشأة الهيروغليفة مركزاً لا يمكن إغفال أثره للحديث عن التحول الديموغرافي والسوسيولوجي للمنطقة.

إن مراحل تطور اللغة المصرية القديمة مفتاح رئيسي لفهم أحجية التساكن هذه، ولكنها تبدو بغية بعيدة المنال، لأننا لا نعثر منها إلا على ما هو مدوّن في الهيروغليفية، وهي تفقد ضرورتها لأنها خارج إمكانية المقارنة بما رافقها من متغيرات، ولي رأي في هذا الشأن يقول أن نقوش ورسومات الكهوف في تدرارت أكاكوس، وما زامنها، قد تُفصح عن أكثر مما هو معروف الآن عن نشأة «الكتابة» الهيروغليفية، وذلك بافتراض أشكال تصويرية أولية تغيرت تدريجياً لتنتج أشكال الكتابة الأولية. إن الأمر نفسه إذا تمّ اعتماده مع الرواسم الفخارية الرافيدينية، التي أنتجت الدور شبه الكتابي Proto-literal في شمال شرق الجزيرة، فإنه سيلقي ضوءا جديداً على هذه النشأة في شمال شرق أفريقيا. ومدّ البحث إلى هذا المدى في التاريخ، لا يكتمل إلا إذا اتصل بسومر، لغةً وكتابةً، ونمط حياة، وأسلوب بحث بشكل تتم فيه معالجة الوحدات البحثية المفردة، أو التفاصيل المحلية، بتوافقاتها بين مكان وآخر، ومعالجة تحوّلات وتطورات هذه الوحدات بمنهجية تفرز المتصل من المنفصل، والشبيه من المختلف، والسابق من اللاحق في سلسلة التطوّر والتحوّل اللغوية الاجتماعية.

الجزْم	لوبية شرقية	لوبية غربية	المسند
ب	ⵀ	ⵀ	𐩨
ج	⇁ ، ↾	↾	𐩴
د	⊓	⊏	𐩵
و	=	‖	𐩥
ز	⊢⊣ ، Ш	⊢⊣ ، I	𐩸
ط	≻—	‖‖	𐩷
ي	≷	ᴎ	𐩺
ك	⇚	M ، ⥣	𐩫
ل	=	=	𐩡
م	Ɔ ، ⊐	⊔	𐩣
ن	|	|	𐩬
س	⧗	⧗	𐩪
ف	ⴼ	⋈ ، ⴼ	𐩰
ص	⊢	T	𐩮
ق	÷		𐩤
ر	O	O	𐩧
ش	Ƹ	Ш ، W	𐩦
ت	⊒ ، +		𐩩

المصدر: المعجم اللوبي

(2)

أصوات بابل

قراءة جديدة للغات العاربة[1]

■ مقدمة

نحدّد أولاً مجال حديثنا، فعندما أقول «اللغات العاربة» أعني تحديداً التراث اللغوي العربي القديم، ويشمل اللغات واللهجات الأفروأسيوية التي تبدأ من تاريخ غير مدوّن يمتدّ إلى ظهور الأقوام الأولى في بلاد الرافدين، الأقوام التي ستعرف بلادهم لاحقاً باسم «كي.إن.گي» ki-en-gi (كِنْگي)، والتي سمّيت في الدراسات الشرقية في القرن التاسع عشر باسم «سومر». قد تختلفون معي على هذا التعريف، ولكنني سأمضي قدماً لأثبت وجهة نظري.

مجال حديثنا يبدأ إذن مما نتلمّسه من بدايات أنتجت اللغة السومرية وصولاً إلى العربية الحجازية، كما نعرفها، وكما لا نعرفها!، مروراً بالأكدية، وبنتيها اللتين عرفتا بالبابلية والأشورية، ثم باللغات التي عُرفت باسم الساميّات حيناً من الدهر، ثم أبدلنا اسمها بالأفروآسيويات، وهو تحديدٌ وإن غلبت عليه الجغرافيا، إلا انه يفي بمتطلبات وصف الانتشار والتحوّل، والساميّات والأفروآسيويات في بحث أدق هي ما نعرفه الآن باسم اللهجات العروبية، وهو المصطلح الذي أوصى به مجمع اللغة العربية في ندوة النقوش العروبية القديمة (طرابلس من 5 إلى 8 مايو 2005). وأميل إلى استخدام

---

1 - محاضرة ألقيت في المركز العالمي للدراسات والأبحاث يوم 17 نوفمبر 2009.

اصطلاح العاربة: اللهجات العاربة، واللغات العاربة، والأقوام العاربة، لأن هذا المصطلح الذي ساد تراثنا ألزَمُ تعبيراً، وهو أكفأ مما نستخدمه من اصطلاحات أخرى كاللهجات واللغات والأقوام الأفروآسيوية، أو غيرها من التسميات.

ونستعير هنا اسم بابل لكونها العلم الأشهر على هذا التاريخ القديم، بالإضافة إلى ما يضمره هذا الاسم من إحالات أسطورية حول بلبلة الألسن وانبثاق الرطانات بين ظهراني شعب كان يتحدث لغة واحدة قبل أن يُغضب الآلهة، أي إنني آخذ بابل بدلالة عامة تختزل حضارة العراق القديم بدءًا بالسومريين إلى دمار مدينة بابل نفسها، بابل التي جعلها حمورابي عاصمة له (1792 – 1750 ق.م)، والتي امتدت حضارتها لقرون طوال، والتي دمّرها الفارسي قورش آخر الأمر عام 539 ق.م.

■ **فرضيات**

بعد هذا المدخل الضروري يتعيّن علينا وفقاً لتقليد عربي متوارث استقيناه من كتابات الأوائل أن نمهّد بطرح فرضياتنا وما تستتبعه من مقدمات.

الفرضية الأولى – وهي دعوة أساسيّة يتوخّاها هذا اللقاء – تقول أن تاريخ المنطقة الممتدّة من الأحواز شرقاً إلى جزر الخالدات غرباً ومن شمال المتوسّط إلى جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا وإلى ساحلها الشرقي وما يناظره شرقاً في جنوب الجزيرة العربية وينتهي جنوباً إلى جزيرة سقطرى.. إنما هو تاريخ متّصل وإن تنوّعت حقبه وحلقاته، صنعته الأقوام نفسها، وإن تعدّدت أسماؤها، وسادت فيه لغة واحدة، وإن اختلفت لهجاتها، وانتشرت فيه العقائد نفسها، وإن تطوّرت أشكالها وتغيرت. وهو تاريخ لا يمكن أن يُعرف ولا أن يُعرَّف إلا باسم واحد دالٍّ مختصرٍ ذاهبٍ مباشرةً إلى ما يعنيه ألا وهو الوطن العربي.

الفرضية الثانية – وهي أيضاً دعوةٌ أساسية ينشدها لقاؤنا هذا – تقول أن لغات هذه المنطقة (أي الوطن العربي) تجمعها كتلة واحدة، وتنطوي في هذه الكتلة عدّة

ضمائم لغويّة ولهجيّة، تقترب وتبتعد عن أصلها القديم بحكم ما مرّ بها من عوامل وعوارض عبر تاريخ حاملها والمتكلمين بها.

ولكنني أضيف على ما هو سائد في هذا الدّرْس أنّ السومريّة ليست في معزل عن هذه الكتلة اللغوية. فـ«الساميّة الأمّ» التي جُعلت افتراضاً علمياً يدلّ على ما بين الساميات أو الأفروآسيويات من تقارب معجمي ونحوي صوتي صرفي (أو صورفي)، وهي تقابل «الهندوأوروبية الأم» في التعبير عن مثل هذا التقارب بين ضمائم الكتلة الهندوأوروبية، هذه «الساميّة الأمّ» في يقيني إنما هي السومريّة وقد تطوّرت، فهي ليست أمّاً بمعنى قابلية العودة التأثيلية إليها بشكل أفقي كما اعتدنا، ولكنها كذلك في قابليّة أخرى أصفها بالرأسيّة، لأنني أجدها متوطّنة قارّة في الضمائم الأفروآسيوية التي نسميها اللغات واللهجات العاربة؛ أي إن التقارب بينها وبين السومرية لا يعتمد على التشابهات المعجمية، ولكن الصلة تنتقل هنا إلى تكوّن الجذور اللغوية العربية وغيرها من مقاطع سومريّة مفردة ومثنّاة، وهذا مبحث جديد في اللسان العربي، وسيأتي بيان ذلك لاحقاً.

■ **عودة إلى «المسألة السومرية»**

لم يسمّ القوم الذين عاشوا قبل الأكديين في العراق القديم باسم سومر، فهذا الاسم أكديّ يرد في صيغة شومر *šumer*، ويُرفق عادة باسم أكد نفسها، فالعبارة «أكد [و] سومر» غالباً ما تتكرّر للدلالة بطريقة عامة، وما زالت غير محدّدة بدقة في الوقت الحاضر، على مجمل ما نعرفه اليوم بالجزيرة، الإقليم المحصور بين النهرين، وما تبعه من مدن وقرى وأرباض.

وكمثال على ديمغرافيا العراق القديم يُعتقد أن مدينة أوروك وحدها كانت تضم 10.000 نسمة عام 3500 ق.م، ومع توفر المزيد من عوامل التوطّن والاستقرار وانتظام الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتطور تقنيات الزراعة والبناء والفخارة والدباغة والتعدين وظهور الكتابة وتأسيس المعابد سوف يصبح عدد سكان أوروك حوالي

50.000 نسمة في 3000 ق.م. أي أننا عندما نتحدّث على هذا النحو مستخدمين عبارة «أكد وسومر» فإننا نتحدث تقديراً عن شعب يعدّ مئات الآلاف، توطّن الكثير من الأرباض والقرى التي ستتطور إلى مدن ودويلات في أزمنة لاحقة، تماماً كما كان يحدث في القسم الغربي من الحوض الأفروآسيوي، أعني وادي النيل الذي تحوّل من مستنقع كبير إلى أرض خصبة مؤهلة للاستقرار، فعندما نتحدث عن العراق القديم وعن وادي النيل، نحن نتحدث عن أولى الحضارات التي وجدت طريقها إلى الاستقرار والتطوّر، نحن نتحدث عن «خلق العالم» كما سوف يُعرَف.

لقد حيّر أصل السومريين الباحثين حتى أن فرانكفورت يعتبر «أن المناقشة المسهبة لهذه المشكلة يمكن أن تتحول في النهاية إلى ملاحقة وهم لا وجود له مطلقاً»، كما شطح خيال الكثيرين فجعلوا هذا السؤال غير المجاب أساساً لتوجيه البحث العلمي وجهة عنصرية أيديولوجية، ونذكر هنا أوستين وادل Austine Waddell الذي وضع نظرية مفادها أن السومريين هم أسلاف الآريّين، وأنهم المؤسسين الفعليين للحضارة المصرية، بل إن الملوك من مرحلة ما قبل الأسرات إلى ما بعد الأسرة الأولى ليسوا في الواقع سوى الملوك السومريين الأوائل، الذين حكموا امبراطورية تمتدّ من الهند إلى مصر، ولكي يثبت فرضياته هذه لجأ إلى المزيد من الفرضيات ليقول أن الأكديين والفينيقيين والعموريين هم من الآريين أيضاً، وأن جميع هذه الأقوام والشعوب تعود إلى أصل واحد تجسّدَ حضارةً وشعباً في سومر. وقد صنّف وادل في ذلك عدّة كتب منها «صانعو الحضارة» و«القاموس الآري السومري»، ولعل أشهرها هو «الأصول السومرية للحضارة المصرية»[1].

يقول وادل: «إن وحدة النوع والمصدر للحضارات السومرية الرافدينية والهندية والمصرية على وفاق مع التكوين الجسماني للشعب الحاكم في جميع هذه البلاد الثلاثة،

1- صدر بترجمة زهير رمضان عام 1999 عن الدار الأهلية للنشر، الأردن.

والذي يظهر في صورهم ومنحوتاتهم وبقايا هياكلهم العظمية، والتي هي برؤوس طويلة، وشعر أشقر، وعيون شهباء أو زرقاء، عرفها المعاصرون على أنها قد كانت علامات مميزة للقسم الآري من الجنس القوقازي».[1]

واللجوء إلى السمات العرقية قد يبدو فاصلاً هنا، هكذا تدلّ صرامة التحديد وتنسيب الجنس، لكن ما ورد في هذه الفقرة هو بعبارة بسيطة جداً، وحاسمة جداً: مجرّد تزييف.

كنت قد أشرت في «ما قبل اللغة»[2] إلى أن القدر الهائل من الحراك الثقافي والاجتماعي الذي عرفته المنطقة يجعل توصيف شعوب المنطقة بسمات ومواصفات عرقية محددة بشكل دقيق موضوعاً خارج السؤال، أي إنه مستحيل ألبتة. وإنما يقتصر هذا الاستخدام على الإشارة إلى شعب يتحدث لغة بعينها، ومنها يأخذ اسمه، فيوصف بها، ولا توصف به. كما أشرت إلى أن الاعتماد على مثل هذه المقارنات مؤسس على الكثير من «أوهام البحث العلمي» وعلى رأسها التقسيم التوراتي للأجناس، الذي ساد بشكل سريع – لغياب التصنيف العلمي الدقيق – وسيطر على الدراسات الألسنية والتاريخية، وهو الآن ليس سوى جزء من تاريخ البحث، ولا تتم العودة إليه إلا من قبيل استدعاء النماذج الكلاسيكية المتجاوَزَة.

من ناحية أخرى فإن وصف السومريين «بذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء» هو من قبيل قولنا الآن «التبو يصطادون الفقمة ويعيشون في الأسكيمو»! لسبب بسيط وهو أن السومريين كانوا يفخرون بإطلاق صفة على أنفسهم من باب التعريف أو التمييز هي: «ذوو الشعر الأسود» أو «ذوو الرؤوس السوداء» حرفياً: «ءُنْ.سَنْگ.گي» (ءُنْسَنْگِي)

1 - م. س. ص19.

2 - ما قبل اللغة.. الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية، صدرت الطبعة الأولى عن دار تانيت سنة 2008، وصدرت الطبعة الثانية عن دار الكتب العلمية سنة 2013.

un-sang-ngi$_6$ وهي كلمة مركّبة من ثلاث مقاطع:

- ءُنْ: قوم.
- سَنْگْ: رأس.
- گي: أسود.

نورد هنا مثالاً دالاً هو جزء من ملحمة «ءِنْ.مَرْكِر En-marker وسيِّد ءَرَتَّا Aratta» وترد فيه كلمات: «كي.إن.گي» أي «سومر»، و«كي.أوري» أي «أكد»، و«ءُنْ.سَنْگ.گي» أي «أهل الرؤوس السوداء»، و«مَرتو» التي سنعود لها لاحقاً، نقرأ:

المتوافقة اللسان	*eme ḫa-mun*
كِنْگي، الأرض العظيمة، ناموس النبالة	*ki-en-gi kur gal me nam-nun-na-ka*
كِيُرِي، الأرض البهيّة	*ki-uri kur me-te-ĝal*$_2$*-la*
أرضُ مَرتُو، المرْجُ الآمن	*kur mar-tu u*$_2$*-sal-la nu*$_2$*-a*
كَوْنُ الرؤوس السوداء وهم	*an ki niĝin*$_2$*-na uĝ*$_3$ *saĝ sig*$_{10}$*-ga*
يخاطبون [الإله] ءِنْلِلْ بلسان واحد.	^{d}en-lil$_2$-ra eme$_1$-am$_3$ ḫe$_2$-en-na-da-ab-dug$_4$

وبالعودة إلى هذا النعت المتكرّر في الألواح المسمارية، لا معنى – إطلاقاً – للقول بآريّة السومريين. نعم، ربما كانت الشواهد التي لجأ إليها وادل صحيحة – في معظمها – خاصة ما يورده من مقارنة بين الرموز والعلامات السومرية في مرحلتها الصورية وبين العلامات الهيروغليفية ورموز وادي السند، لكنه عمد – في ما رتّبه عليها من نتائج – إلى توجيهها لكي تؤدي هدفاً واحداً هو أرْيَنَة السومريين، وأرينة الكنعانيين، وأرينة أسلاف العرب، ثمّ أرينة الشرق، وبالتالي أرينة حضارة العالم.

الملاحظة الأولى التي نسجّلها على الفرضيات التي يلجأ إليها الباحثون لسدّ فجوات في تاريخ الشرق القديم، وفي التراتيب الكرونولوجية لأعمار الحضارات التي نشأت فيه –

ومنها ما نقرؤه عند وادل – هي أن تصوّرهم للحضارة يتأسّس على أكثر مما يجب من «الكمال»! وأعني بهذا العبارة أن هؤلاء الباحثين يقومون بنزْع الحضارة عن دالّة تكوّنها في الزمان، ويحيلون إحداثياتها المتغيرة إلى نسق ثابت تتطابق فيه هذه الإحداثيات بغض النظر عن المسارات غير النسقيّة التي تندرج فيها النشأة، ويندرج فيها النمو، أي بأخذ طابع تدرّجي متتالٍ متّصل الحلقات بشكل مباشر أو غير مباشر. أي أنهم – آخر الأمر – يُثبِّتون صورةً نمطية واحدةً – أو عدداً قليلاً – من صور نشأة الحضارة وتطوّرها ونموّها.

■ حيل التاريخ

هذا الأسلوب يُسقط غالباً ما أسميه بحيل التاريخ، أي أن تاريخ أمة من الأمم ليس نسقاً ثابتاً جامداً (أو ستاتيكياً – لمن يفضّل منكم استخدام هذه الكلمة) بل هو مليء بالانقطاعات والانعطافات والطفرات والارتكاسات في المسارات الرئيسة. كما أن هذا الأسلوب يُسقط ظواهر عديدة كالكمون، والتحوّل، والانتشار، أي ظواهر الهيمنة، ممارستها أو الخضوع لها، وتاريخ أمم العالم في واقعه هو تاريخ واحدة أو بعض أو كلّ ظواهر الهيمنة هذه. هل ثمّة أمة لم تنتصر أو تُهزم في حرب شنّتها أو خضعت لها؟

بالنسبة لي، ومن خلال قراءة متوازية لمسارات التشكّلات الحضارية في الشرق الأدنى، فإن السومريّين الأوائل هم مزيج من القبائل التي كانت تجوب الوديان والمفازات بحثاً عن أسباب التوطّن والاستقرار الدائم، ومن المستحيل بحث أصولهم العرقيّة في تلك الفترة، لكنني لا أتردّد في وصفهم بأسلاف العرب، أو العرب الأوائل، ببدء توطّنهم في المدن والقرى الأولى التي نشأت بين دجلة والفرات.

قلتُ أن «الأدوار الأولى ليست سوى «كومونات» تعتمد على الرعي وبالكاد انتظمت فيها الزراعة، كما أن الأرض (في الجزء الجنوبي من الرافدين) لم تكن سوى مستنقع كبير».

هنا تماماً نشأ السومريون، لم يكونوا شعباً رحّالاً استقر هنا في زمن قصير، هذا التوطّن امتدّ لقرون من الزمن كانت الجماعات (القبائل لاحقاً، ثم المدن) تتوطّن تدرّجاً وبما يلائمها من عوامل وبيئات.

بعد انحسار آخر عصر جليدي بدأ توطّن جنوب بلاد الرافدين، ولا يمكنني بما يتوفّر من معطيات أركيولوجية أن أتبنى فكرة هجرة جماعية واحدة قدمت من الشرق أو من الشمال، وهذه القراءة تستند إلى التبدلات الطبيعية والبيئية التي حدثت في انحسار ذلك العصر الجليدي، ولكن لماذا لا نستطيع افتراض قدومهم من الشرق أو الشمال؟ لأن تضاريس تلك الأراضي كانت ستؤهلهم للاستقرار دون أن يواصلوا الترحال، بينما تضاريس ومناخ الجنوب (أي جزيرة العرب الآن) وتضاريس ومناخ الغرب (أي بادية الشام الآن) كانت تدفع بهم جبراً إلى توطّن ضفاف الفرات ودجلة التي تحوّلت من مستنقع كبير إلى أرض صالحة للاستزراع والاستيطان، تاركين وراءهم أرضاً يتسارع تصحّرها وتحوّلها إلى مفازات جافة.

■ السومريون العرب

وأقدّم هنا فرضية من شقين متصلين متواصلين:

أسلاف العرب بدلالة خروجهم إلى بلاد الرافدين من الجزيرة وصحراء سوريا هم السومريون، ذوو الرؤوس السوداء. وتأخّر تدوين اسم العرب لا ينفي هذه الفرضية.

والسومريون الذين صنعوا أولى حضارات العالم وتتالت هجراتهم إلى الغرب والجنوب، هم من سيُدوّن اسمهم لاحقاً بوصفهم عرباً.

أريد بهذه الفرضية أن أعيد التفكير في المسارات الكبرى التي صنعت الحياة في الشرق الأدنى. لا يمكننا التفكير في مسارات خطيّة تهاجر فيها الجماعات من مكان إلى آخر. هذه الجماعات والقبائل والشعوب التي نعرفها بدءاً بالسومريين والأكديين الذين وحّدهم «سرگون» (شرّكِنْ) إلى أعراب الجزيرة الذين وحّدهم «محمّد» هم في الحقيقة

شعب واحد دفعت به تغيرات المناخ والطبيعة وعوامل الاجتماع إلى الطواف بين أطراف الجزيرة شمالها وجنوبها، غربها وغرب غربها، وأعني بغرب الغرب شمال إفريقيا، ذلك أن شرق الجزيرة كان من جهة وسطه وجنوبه بحراً، وكان من جهة شماله جبلاً، وهو الجبل الذي سيأتي منه العيلاميون (أسلاف الفرس) ليدمروا بابل ويعيثوا في الأرض خراباً.

لهذا السبب، أي بفعل وحدة المجال البيئي واتصال المكونات الاجتماعية، يمكننا الاعتماد على السومرية للعثور على اللغة الأولى التي «تشظت» في لغات الحوض الأفروآسيوي، ويمكننا إقامة وإثبات الصلة بين اللغة السومرية وبين الشحريّة (وهي لهجة حميرية)، كما بين السومرية من جهة وبين العربية أو الأمازيغية أو المصرية القديمة من جهة أخرى، فالمعجم الأصلي، اللغة الأولى، نشأت في الحقيقة في جزيرة العرب، ثم تفرعت شمالاً وجنوباً وغرباً، وإلا فبماذا نفسّر الصلة بين السومرية ولهجة قبائل التبو مثلاً وهي تعيش الآن في الصحراء الكبرى جنوب ليبيا، لقد أثبتّ ذلك في «كتاب التبو»، وبي ميْلٌ إلى اعتبار أن التصنيف المعتمد الآن للغات النيلوصحراوية هو تصنيف تعوزه الدّقة، وهو في حاجة منّا – نحن الباحثون العرب والأفارقة – إلى إعادة النظر فيه وتمحيصه من جديد.

أريد أن أقول أن تصوّر النسقيّة واللاحراك في تاريخ الحضارات القديمة يجعلها أشبه بنحت راسخ مؤبّد لا يستجيب، اللهم إلا لبعض أثر من ريح تواصل نحته منذ الأزل، أو لتدخّل قسري قد يغيّر بعض ملامحه دون أن يجعل منه شيئاً آخر مختلفاً عما كان عليه طوال ألفيّات وقرون.

■ أكد السومرية

قلت في طالعة هذا الخطاب أن سومر اسم أكدي، أي أنه لم يرد في المَدْوَنات السومرية، وقد كان يأتي مرفقاً عادةً باسم «كي.أوري» (كيوري) أي أكد.

من الأمثلة مثلاً ما نعثر عليه في القصائد والملاحم الأكدية التالية:

نقرأ في «رثاء نِبُرْ»:

«نهاراً دنّس العدوّ سومر [و] أكد، أقول لكم».

*Ud **ki-en-gi ki-uri** lu$_2$-erim$_2$-e šu ḫul bi$_2$-in-dug$_4$-ga*

وفي «مديح شُلگي» نقرأ:

«ألواح سومر [و] أكد بكتاباتها قد عرفتها».

*dub **ki-en-gi ki-uri** nam-dub-sar-ra mi-ni-zu*

مثل هذه الأبيات يجمع الاسميْن معاً. نحن نقرأ «سومر أكد»، وإذا عدنا إلى التاريخ فلا فرق نجده في طوبوغرافيا هذا الكيان. اللهم إلا مسألة التوسّع والانحسار بين أسرة وأخرى. لا شيء غير ذلك. وهناك العشرات من الأمثلة التي يقترن فيها ذكر سومر وأكد. هكذا كان اسم سومر متداولاً عند الأكديين. بل أنه لم يُفصل بأية طريقة عن اسم أكد في تلك الألواح. نحن في الواقع لا نقرأ إلا «سومر أكد» (كنگي كيوري) متّصلتين كأنما للدلالة على علم مكان واحد.

إذا جئنا إلى التسمية السومرية نفسها سوف نجد، كما أوضحت في «ما قبل اللغة»، أن الاسم مكوّن من ثلاثة مقاطع:

- كِ ki : بمعنى أرض، وهي العربيّة «قي».

- إن en : بمعنى سيّد.

- گِ gi : بمعنى الأصلي، كما في كلمة «دُمُگِ» dumu-gi: رجل حرّ، أصلي؛ أو «مواطن».

وكلمة «دُمُگِ» مكوّنة من «دُمُ» dumu: ابن، و«گِ» gi: بمعنى المقيم بالمدينة منذ الولادة، فهو «ابن البلد» أو «وِلْد بْلاد» كما في لهجتنا. ومن «دُمُ» نشأت كلمة «دِهْمُ» الأكدية التي استقرت في العربية تحت الجذر «دهم» في كلمة «دهماء» أي عامة الناس،

وبالإضافة إلى صلتها بالدم، فإن التعبير الشعبي السائد في جميع أقطار الوطن العربي ما زال يستبطن المعنى الأصلي عندما يعبّر أحدهم عن ابنه فيقول هو «دمي»، يعني من صلبه. وهذه الكلمة السومرية (دُمُ) انتقلت أيضاً إلى اليونانية «دِمُسْ» demos أي الشعب، كما في «دِمُكرَسي» democracy، أي سلطة الشعب، سلطة الدهماء، أو عموم الناس. فكلمة كِنْكِ ki-en-gi إذن إنما هي بلاد السادة الأصول أو الأصليين، أو بلاد الأحرار اختصاراً.

وقد عرف السومريون بلادهم بأسماء عديدة، منها «كَلَمْ» *Kalam*، وهي مرادفة للعربية «كُلام» (بضم الكاف) أي الأرض الطينية الجافة، فكأنهم قد أرادوا بذلك الدلالة على وقوعها في خوضٍ من المستنقع الجنوبي لدجلة والفرات.

كذلك وصف السومريون لغتهم بأنها: eme-gi، أي اللغة الأصلية [الأولى]، وهي كلمة يكوّنها مقطعان: eme بمعنى لسان، وgi بالمعنى السابق أي الأصلي. وتسمى أيضاً إمِگِر eme-gir أي بإضافة حرف الراء، ولي قراءة في «كتاب كنعان» توضح العلاقة بين «إمِگِرْ» أو «إمِجِر» هذه و«أمازِر» المعروفة جيداً بصيغة «أمازغ» أو «أمازيغ».

■ الأقوام العاربة

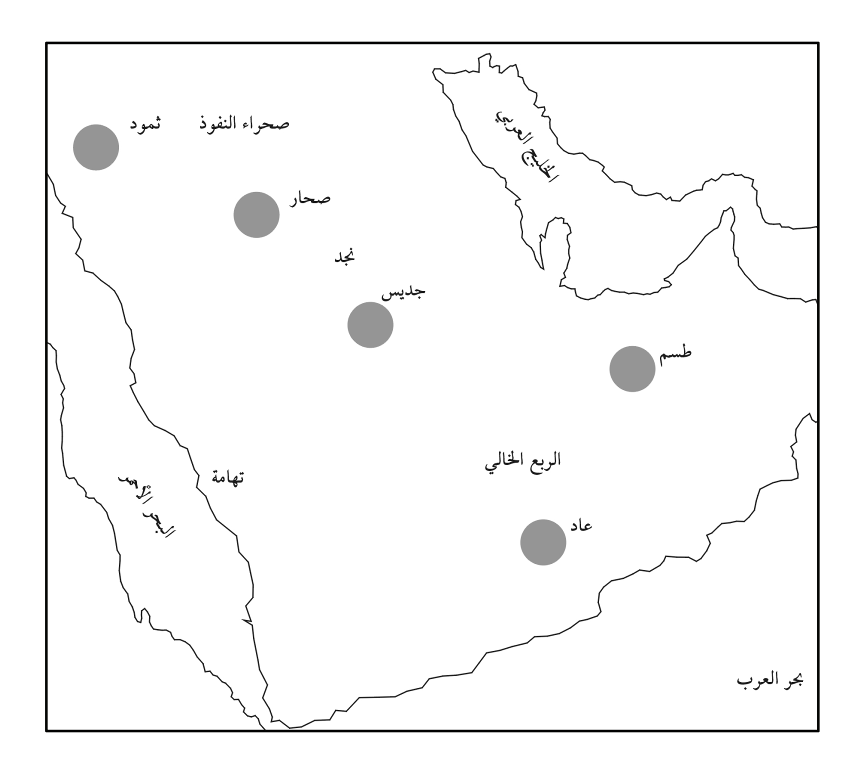
ليس العراق استثناء مما مرّ به الوطن العربي من محاولات متواصلة لطمس آثاره التاريخية، وتشويه هويّته، وإعادة توطين مساره في التاريخ، على نحوٍ لا يعود فيه العرب عرباً بل أشتات أقوام أجنبية مهاجرة، وعلى نحوٍ لا تعود فيه الحضارة العربية فعلاً مؤسّساً للتاريخ بل صدى لتاريخ محيطها، صدى يضيع كلما تقدّمنا في التاريخ منفصلاً عن جذوره بادئاً كلّ مرة ممن جاوره من أقوام وحضارات.

لقد دَرَجَ السَّبْر الأكاديمي، والسبر يعني التجربة والخبرة واكتناه الأمور، على تسمية الأقوام التي جاورت وعاصرت السومريين بالأقوام الساميّة، وهذه التسمية في الحقيقة فسّرت السابق بهيئة اللاحق، وأوّلت الماضي بفهم الحاضر، فقرّرت غير المرئي بما هو

مرئي، ولسنا في حاجة الآن إلى استعادة ما ذكرناه مراراً من تاريخ هذه الكلمة ونَسَبها، لكننا نشير في عجالة إلى أن نسبها التوراتي قد آل بها في الدراسات المتأخرة إلى اختزال ما عرفه التاريخ من حراك اجتماعي وسياسي وثقافي للأقوام العاربة في ملمح اجتماعي وسياسي وثقافي مزعوم للعبرانيين، والعبرانيون حالة طارئة على تاريخ هذه الأقوام، بل هم خطأ تاريخي بالنسبة إليها، فهم – وهذا جديد في ما تسمعون من هذا اللقاء – من أحفاد الگوتيين الذين دمّروا أور انطلاقاً من شمال بلاد الرافدين، وهيمنوا زهاء قرن من الزمان ثم اختفوا كما ظهروا، أو ذابوا في مَن وجدوا أمامهم من أقوام، وسوف أعود إلى تفصيل القول بشأنهم في بحث أو ربما لقاء آخر.

تبقى الإشارة هنا إلى أننا نستخدم اصطلاح العاربة دون الالتزام باستخدام اصطلاحين آخرين يرافقانه عادة في كتابات الإخباريين العرب، وهما الأقوام البائدة والأقوام المستعربة. فهذا التقسيم يؤول عادة إلى طرفين، العاربة أو العرباء أو البائدة، والمتعرّبة أو المستعربة، وهو آخر الأمر ليس سوى شكل آخر من تصنيفهم إلى قحطانيين وعدنانيين. فإذا لجؤوا إلى اللفظ الأول قصدوا القِدم، إشارةً إلى قبائل العرب التي بادت قرومها قبل الإسلام، ثم كان نسلهم في العاربة، أو أن هذه أعقبتهم، ثم كان نسل العاربة في قحطان، وإذا لجؤوا إلى اللفظ الثاني قصدوا الفصل بين عرب اليمن وعرب الحجاز، دون تمييز في القِدم، فالتمييز هنا اجتماعي لغوي.

يقول جواد علي في المفصّل (1/ 295): «جماع العرب البائدة في عرف أكثر أهل الأخبار هم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وعبيل، وعبدضخم، وجرهم الأولى [وهي غير جرهم القحطانية أو الثانية]، والعمالقة، وحضورا [وهم أصحاب الرّس]، فهولاء هم مادة العرب البائدة وخامها، وهم أقدم طبقات العرب على الإطلاق».



عندما نعرّف الأقوام العاربة – إذن – نقول هي القبائل العربية القديمة التي عاشت وسادت أرض الجزيرة العربية وجوارها الأفريقي على امتداد الساحل الشرقي من القارّة وساحله الشمالي وصحرائها، قبل ظهور الإسلام.

فإذا اتفقنا على هذا التعريف – البسيط والشامل في نفس الوقت – لزِمنا أن نجري تعديلاً على فهم بعض المفاهيم المتصلة به.

أوّل ذلك هو ما نصطلح عليه بالجاهليّة، وهذا لفظ إسلامي وصفيّ قدحيّ أطلقه المؤمنون على غير المؤمنين، وعنوا به عرب ما قبل الإسلام، ولم أعثر على ما يفيد أنهم عنوا به غيرهم من الأمم. فالمسيحيون واليهود كانوا أهل كتاب، والفرس والروم عرفوا

بأسمائهم هذه.

وهذا اللفظ يصف – في الواقع – جانباً واحداً لا غير من أولئك العرب، يختص بأغلب عقائدهم، وبعض سلوكهم وعاداتهم، فأغلب تلك العقائد نبذه الإسلام فلم يُبقِ إلا على ما أشار إليه القرآن بالإسلام، أي إسلام ما قبل الإسلام، أو الإسلام الإبراهيمي، ومن ذلك معتقد الحنيفيين والأنبياء الوارد وصفهم بأنهم مسلمون، فالإسلام في القرآن هو دين الله على الأرض منذ أن عرفت الأرض رسل وأنبياء الله، لا منذ ظهور الإسلام بين ظهراني العرب المستعربة، أي الإسلام المحمّدي.

وإلى ذلك فإن جانباً من هذه الدلالة العامة نستفيد منه تحييناً تاريخياً، وإن كان على نحو مقارب غير دقيق، فما هو العصر الجاهلي؟

إنه جزء من تاريخ العرب تبدأ نهايته ببدء رسالة الإسلام في مكة، فإذا جئنا إلى وصف الأفراد بهذا الوصف – أي الجاهلية– نجد أن العصر الجاهلي ينتهي بفتح مكة، ومن بقي من غير العرب على دينه بعد فتح مكة هو كافر أو مشرك فقط، دون أن يبقى جاهلياً.

دلالة الجاهليّة إذن لا تؤخذ على الإطلاق، فهي – بالرغم مما تضمّنته من دلالة قدحيّة – مقيّدة أُريدَ لها أن تدلّ على الزمن الذي سبق ظهور الرسالة، ثم انصرفت ضمن ما انصرفت إليه إلى الإشارة إلى عقيدة الرجل من العرب، ولعلّ لذلك صلة بلقب أبي جهل، الذي كان من عتاة الكفار وأشدّهم حَمْلاً على النبي خاصةً.

فتح مكة إذن هو نهاية العصر الجاهلي، فماذا عن بدايته؟.

إننا مهما عمّمنا لن نستطيع المضي بدلالة هذا اللفظ إلى أبعد من التاريخ المتصوَّر لنشأة العرب المستعربة من أبناء إسماعيل بن إبراهيم. فإذا دقّقنا قلنا أن دلالة اللفظ تبدأ من الزمن المتصوَّر لنصب الأوثان في الكعبة، وانتشار ثقافتها، أي ثقافة المعتقدات الوثنيّة، بإقدام عمرو بن لُحي الجرهمي على نصب هذه الأوثان كما نقرأ في الإخباريات

العربية القديمة، أي بعد ترك الإسلام الإبراهيمي، فهذا اللفظ الذي قبّح ما كان عليه العرب قبل الإسلام المحمّدي لا يشمل كلّ العرب، إذن، بل كان لوصف عبدة الأوثان، ولم يكن كل العرب كذلك.

لقد أسّست الكعبة في أرجح الآراء منذ 2000 ق.م، استوطنتها جرهم أولاً، ثم حلّت خزاعة بديلاً عن جرهم مع القرن الثالث الميلادي، ثم حلّت قريش بديلاً عن خزاعة، وصولاً إلى عام الفيل أو عام الأبابيل – الذي وُلد فيه النبي ﷺ – دون أن تنجح حملة أبرهة في تحويل دين العرب إلى المسيحية بدلاً عن الوثنية، وهذا الزمن – أي مع القرن الثاني الميلادي – هو التأريخ التقريبي الذي يبدأ ببدايته وصف الجاهلي.

أريد التأكيد من ناحية أخرى على أن هذا اللفظ الذي قبّح ما كان عليه العرب قبل الإسلام لا يشمل كلّ العرب، ونعود إلى رأي فيه الكثير من الوعي بالتاريخ، والعلم بالقرآن، للشيخ عبدالحميد بن باديس إذ يقول: القرآن «يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل، وينوه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنيّة المدنيّات، ولنذكر عاداً فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشدّ منا قوة. أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾.

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها ترينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها. حتى إن الله جل شأنه لم يتحد قولهم: ﴿من أشدّ مناّ قوة﴾ إلا بقوته الإلهية التي يذعن إليها كل مخلوق، ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها. وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أمة معتدة بقوتها وعظمتها».



خريطة العالم، وهي الأقدم من نوعها، وفيها تتوسّط بابل مركز الأرض

انتهى الاقتباس عن ابن باديس[1] وهو يذكر بعد ذلك أمماً وأقواماً عاربة أخرى من عرب ما قبل الإسلام، أهمها ثمود وسبأ، ويختم قائلاً: «هذه مدنيات ضخمة عبرت في هذه الأمة التي أهلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم. وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيأها للنهوض بالعالم وإنقاذه»، وكان ابن باديس قد أجمل ذلك في محاضرة له سنة 1939.[2] وأشير إلى أن هذا الشيخ الأمازيغي الأصل يتحدث أيضاً عن «محمّد (ص) رجل القومية العربية» وهذه العبارة هي عنوان محاضرته المرفقة مع المحاضرة الأولى، وهو صاحب النشيد المعروف «عروبة الجزائر»، ومطلعه:

شـعبُ الجزائـرِ مسـلمٌ   وإلـى العروبـةِ ينتسـبْ

منْ قـالَ حـادَ عـنِ أصلهِ   أو قـالَ مـاتَ فقـدْ كـذبْ

وقصيدته المشهورة التي مطلعها:

الحمـدُ لله ثـمّ المجـدُ للعـربِ   من أنجبوا لبني الإنسانِ خير نبي

ونشـروا ملّـةً فـي النـاسِ عادلـةً   لا ظلـمَ فيها على ديـنٍ ولا نسـبِ

وعودٌ إلى حديثنا.. فإننا إذ نتصوّر الآن أن جميع مَن ذكرنا مِن أمم وأقوام كانت تتحدث عربيّة ما، مختلفة عن عربيتنا، فإننا بذلك نعيد تكرير قول مأثور عن أبي عمر البصري يرى فيه أن لسان حمير ليس بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا، وليس أصح من هذا سماعاً، ولكننا جميعاً نعرف كيف كان ابن عباس يتقن هذا اللسان ويفسّر به غريب القرآن، فأيكم الآن لا يقول بعربيّة حمير وإن لم يعِ منها شيئاً؟ بل العربية قاموس (أعني محيطاً) أشمل من أن يجمعها ساحلٌ واحد، وهي أكبر من كل قاموس (أعني معجماً) ينجزه أحد، ولن ينجز أحدٌ على الإطلاق معجماً تاريخياً شاملاً للغة العربية لهذا

---

1 - ابن باديس، العرب في القرآن، دار تانيت، 2009، ص 13، 14.

2 - أعيد نشر هذه المحاضرة بعنوان "العرب في القرآن" سنة 2000 عن دار تانيت.

السبب، أي لأن أحداً لا يحيط بنشأة العرب ومراحل تكوّن لسانهم شيئاً فشيئاً.

العربية لم تنزل من السماء مرةً واحدةً، أو تلقّاها العرب عن «أڤاتار» علوي، بل تدرّجت تدرّج الكائن الحي مولداً، ونشأةً، واكتمالاً، وقد نشأ اللسان العربي منذ أن توطّنت الأقوام الأولى هذا الحوض الأفروسيوي الكبير، نبتت في ما نعرفه الآن بشبه الجزيرة العربية، ثم رحلت شمالاً فدوّنها السومريون، ثم الأكديون، ولكن ذلك لا ينفي أنها كانت قد اكتملت في موطن نشأتها جنوباً، وذلك لا ينفي أيضاً أن مراحل قبل ذلك كانت خارج التدوين لا يحيط بها أحد.

لهذا السبب أقول إن كل معجم تاريخي يظهر الآن لن يجمع أصول العربيّة، وإن قارب ذلك في مسار عام يفحص دون أن يفصح، ويشير دون أن يقف فعلاً على تدرّج المفردات وبنائها عبر جميع مراحل النشأة.

■ جزيرة العرب في المصادر السومرية

نعرف من خبر الأقوام العاربة إذن أسماء عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم، وإلى هؤلاء نأخذ عن طه باقر ما ورد في أخبار الملوك السومريين من ذكر لـ«مواضع في جزيرة العرب مثل البحرين (وسموها دلمون)، وموضع آخر بهيئة مكان (وهي عمان الآن) على أنها مصدر للنحاس وملوخا وهي أيضاً في الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة».[1]

ولا أرانا نستطيع حسبان هذه المواضع بدلالة جغرافيتها مع إهمال سكانها، أنستطيع؟

هذه مواقع سومريّة في جزيرة العرب، وردت أسماؤها في الرّقم المسمارية، ونحن لا نعثر في أي منها على ذكر للعرب لسبب منطقي وهو أن اسم العرب لم يظهر آنذاك، بل كان لكل قبيلة أو ربض اسماً خاصاً، ولم يكن السومريون من سكان جزيرة العرب

---

1 - باقر، مقدّمة، ص 116.

يستخدمون اسماً جامعاً يدلّ على مجموع مدنهم وأرباضهم وقبائلهم، أي يتسمّون به كشعب بين شعوب العالم، بقدر ما كانت الضرورة تدعوهم إلى أن يشيروا إلى أنفسهم، خاصةً أثناء الصراع أو الاقتتال بين قبائلهم، بأسماء هذه القبائل والانتساب إليها، ولكنهم آخر الأمر لا يخرجون عن الصفة العامة التي يبدو أنهم كانوا يفضلونها والتي تكررت في الرقم المسمارية وهي «ذوو الرؤوس السوداء»، (ءُنْسَنْكِي)، وقد استغرق هذا الوضع وقتاً طويلاً قبل أن يعرف هؤلاء أنهم ليسوا الشعب الوحيد في العالم المأهول، أو الأويكومين القديم، بعد أن اصطدموا في ترحالهم إلى الشرق وراء مستنقع الخليج بأقوام غريبة عنهم، أو بعد إمعانهم في الهجرة إلى الشمال حيث الجبال الفاصلة وهي تخوم طبيعية لجزيرة العرب منذ القدم. ولكن تتبع الهجرات المتعاقبة لأقوام الجزيرة العربية نحو الشمال سرعان ما يبدو أكثر وضوحاً مع الأكديين.

يقول طه باقر: «جرى المؤرخون على تعداد موجات متعاقبة جاءت من الجزيرة واستوطنت أراضي الهلال الخصيب، وكانت أولى هذه الموجات هجرة الأكديين إلى العراق، ولا نعلم بوجه التأكيد متى جاؤوا، ولكن مما لا شك فيه (...) تغلغل الساميون [الأقوام العاربة] في العراق منذ أقدم العصور ولكن عرف منهم الأكديون في العهود التاريخية لتوفر المصادر، ولأنهم سموا باسم خاص أي أكديين».[1]

لقد صحّ أن المبدأ الأساسي لهجرات الأكديين هو الجزيرة العربية، ونحن لا نتصوّر تأسيسهم لدولتهم إلا باستيطانهم وتناسلهم في بلاد الرافدين وتشكيلهم لثقل اجتماعي وديموغرافي جعلهم مؤهلين لذلك، وهو ما يمكن عدّه بالكثير من الأجيال التي استغرقت مئات السنين، ولا يمكن في هذه الحالة الحكم بأرومتهم أو الاستناد إلى نقاء نسبهم وعدم اختلاطهم بغيرهم من القبائل التي كانت تفد لتستقرّ معهم وإلى جوارهم، فلقد أسّس الأكديون دولتهم في منتصف الألف الثالث ق.م. في نهاية ما هو متعارف عليه بعصر فجر

---

1 - نفس المصدر السابق.

السلالات، بينما كان قسم آخر من الأقوام العاربة يستقرّ شمالهم باسم الأشوريين، أما الأموريون أو العموريون فقد استقرّوا غربهم في ما يعرف اليوم بالشام، فأسّسوا كيانهم وسطاً وشمالاً، قبل أن ينتقلوا بدورهم غرباً ليؤسسوا دولة لهم عرفت باسم سلالة بابل الأولى، وكان أصل اسمهم في السومرية هو «مَرْتُ» أي الغرب، وهي العربية «مرت»، فالمرتُ هي المفازة لا نبات فيها، وهي الأرض اليباب، وتلك صفة الصحراء الغربية.

وفي حين كان الكنعانيون يتوطّنون تدريجياً على ساحل شرق المتوسط، بالتزامن مع الأكديين في منتصف الألف الثالث ق.م. نجد أن قبائل الأراميين نزحت في منتصف الألف الثاني ق.م لتستوطن أعالي الرافدين ووسطها، بالتزامن مع وجود الأشوريين، وقد أسسوا في ما بعد الدولة الكلدانيّة في العراق، بالإضافة إلى إمارات عديدة أخرى في الشام في حلب ودمشق وغيرهما.

إن النزاع بين الأقوام العاربة حقيقة تاريخية لم يشفع لها وحدة الأرومة أو اتفاق اللغة، لكننا يجب أن نفكّر في مثل هذه الوقائع باعتبارها شكلاً من أشكال الصراع على السلطة الذي عُرفت به بلاد الرافدين بدءاً بالسومريين.

لقد استوطن العبرانيون والمؤابيون فلسطين وشرق الأردن، لكن تأسيس هذه الكيانات لم يتعد المستوى القبلي، فلا يمكننا مقارنتها بالدول والإمبراطوريات التي سادت بدءاً بالأكديين، بينما نستطيع مقارنتها بغيرها من الكيانات القبلية المستقلة كالأنباط واللخميين والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام، وغيرها من القبائل التي استمر وجود كياناتها هنا وهناك دون أن يتوقف حراك القبائل العاربة على مدى الآلاف من السنين، أي منذ استقرار السومريين، إلى أن خضع معظم هذه القبائل لهيمنة الفرس، وبعد ذلك الروم الذين لم يصمدوا آخر الأمر أمام جحافل القبائل العربية التي وحّدها الإسلام.. هذه مسارات كبرى في تشكّل الأيكومين الأفروآسيوي القديم لا يغلّب جزئية من جزئياتها إلى الدعم الأركيولوجي المؤكَّد. فلنخصّص بعض ما تبقى من الوقت للحديث عن إحدى أهمّ هذه الجزئيات المؤسّسة.

■ **لغز كنعان**

قلت أن الكنعانيين بدؤوا يتوطّنون شرق المتوسط بالتزامن مع استتباب الأمر للأكديين في منتصف الألف الثالث ق.م. ولكننا عندما نأتي إلى الكنعانيين نجد أن هناك لغزاً في تاريخنا العربي غير مجاب بعد، إذ لا أحد يستطيع الجزم بأصول الكنعانيين، أو متى ومن أين جاؤوا قبل أن يتوطنوا شرق المتوسط، في ما سيعرف بعد ذلك في تاريخ الحضارات باسم فينيقيا؟ الآراء متعدّدة ومتضاربة، وهناك مجموعة ألغاز تتصل بالكنعانيين تباعاً.

للإجابة على مثل هذه الأسئلة يجب علينا النظر في أقدم الآثار اللغوية، علينا أن نبدأ بالسابق، وعلينا أن نواصل من هناك عبور الأزمنة باتجاه اللاحق.

عرفنا أن السومريين أطلقوا على بلادهم اسم «كِنْگي» التي عبّروا بها عن أنفسهم بمعنى «بلاد السادة الأصليين» وعبرنا عنها اختصاراً بـ«بلاد الأحرار»، وهذه الكلمة في لهجتهم العامة المسمّاة «إمِسَلْ» Emesal هي «كنآنگ» *ka-na-aĝ*، ونستطيع قراءتها «كنآن» لسببين:

- لقد وجدنا أن حرف «نْگ» ĝ الأخير يتحوّل عند المقارنة بالأفروآسيويات إلى أحد مكوّنيه، النون (ن) أو القاف اليمانية أي الگاف (گ).

- في غير حالة الإبدال هذه، أو التفكيك إذا صحّت التسمية، نجد أن الصامت الأخير من الأسماء يُحذف عادةً في اللغة السومرية، كما في «إمِگر» *eme-gir* التي تتحوّل إلى «إمِگي» *eme-gi*، وقد طالعنا هذا المثال. وقريب من هذه الظاهرة حذف النون في الآرامية حينما تكون في آخر الأسماء في حال المطلق في الجمع، وحذف الراء من آخر الكلمة أيضاً، وظاهرة حذف الصامت الأخير عرفتها العربية أيضاً.

على هذا النحو فإن قراءتنا للكلمة بصيغة «كنآن» هي قراءة صحيحة، وترون معي أن هذه الكلمة ليست سوى صيغة تلفّظية لكلمة «كنعان»، هذا الاسم في الحقيقة هو

كنعان، كنعان هي سومر، والكنعانيون هم السومريون.

أما حرف العين المضمر هنا في المدّ المفتوح فقد كنت أشرت في كتاب «ما قبل اللغة» وفي عدّة محاضرات إلى ما أسميته ظاهرة «الحروف المغيَّبة»، وأعني بها إضمار أو تغييب عدة حروف في عدد قليل من العلامات، بحيث يتحوّل تلفّظ تلك العلامات، ثم نقحرتها (أي نقلها حرفياً) إلى الكتابة اللاتينية عمليةً فيها الكثير من الاختزال المخلّ بالتنوّع اللفظي الذي نعتقد أنه كان سائداً في سومر، وقد أوردت في أكثر من مكان أمثلة على هذه الظاهرة، ويمكن على نحو دقيق العودة إلى «ما قبل اللغة» للتعرف عليها حيث قدّمت ما أعتقد كفايته من الأمثلة.

كان سباتينو موسكاتي قد تناول التغيرات الصوتية التي تعتري النقوش الأصلية بعد نقحرتها، وسأعرض عليكم مثالاً لذلك من أجل دعم فرضيّة «الحروف المغيّبة».

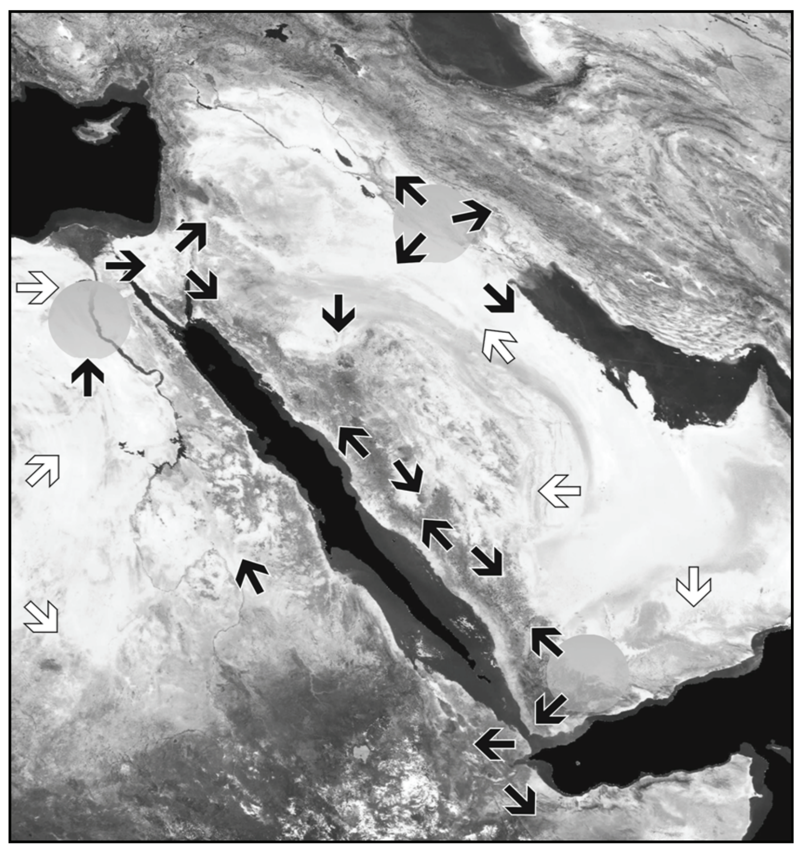
من هذه الظواهر مثلاً أن «غياب حرف الواو من السومرية يعود في الغالب إلى أسباب نقشيّة لا إلى أسباب تلفظيّة» (موسكاتي 51). وإننا لنتساءل لماذا كان الأكديون – مثلاً – ينطقون الصاد والقاف صريحتين، بينما لم يعرفهما السومريون؟ إلا إذا رجّحنا أن العلامات المسمارية إما أنها لم تحفظ ذلك، وإما أن اقتراح ملفوظيّتها قد تمّ بطريقة فيها الكثير من تغليب المخارج الهندوأوروبيّة، دون مراعاة الجوار الحضاري والثقافي الذي يتفق الجميع على جمعه بين السومريين والأكديين وغيرهما من الأقوام العاربة في بوتقة ديموغرافية وجغرافية واحدة.

أفلا ينطبق الأمر نفسه على حرف العين في اسم «كنآن»؟

قد يعترض البعض على مثل هذا الربط اللغوي بين أجزاء من تاريخنا الحضاري، فإذا كانت المتشابهات اللغوية ثابتة فكيف نبرّر تحويلها إلى حقائق تاريخية، ومن ثم اجتماعية. المسألة – بالنسبة لي – لا تعدو بحثاً نظرياً لغوياً مجرداً، ولكن لهذا البحث آثاره، وهو يلقي بظلاله على قراءة التاريخ، وعلى قراءة التكوينات الإجتماعية، وتاريخ

هذه التكوينات التي لم تُدوّن نشأتها، ولم يُكتب تاريخها الأول.

من الناحية النظرية – أيضاً – إذا كان هناك ما ينفي مثل هذه الإحالات، أعني من اللغة إلى التاريخ، إلى تاريخ المجتمعات، فلن يكون إلا نفياً لغوياً أيضاً، أي أنه لا سبيل إلى دراسة هذا الموضوع إلا من باب اللغة – حتى الآن على الأقل.



منذ 10 آلاف سنة ق.م، مع انحسار آخر عصر جليدي.

قبل 10 آلاف سنة ق.م.

مسارات الجَولان والحراك الثقافي والاجتماعي الأفروآسيوي القديم

■ **العرب اسم علم جامع**

أخلص إلى القول أن العرب عَلَمٌ جَامِعٌ يدلّ على كتلة حضارية تاريخية لغوية اجتماعية واحدة متصلة الحلقات منذ انحسار العصر الجليدي الأخير، أي منذ اثنتي عشر ألف سنة.

من ناحية أخرى فإن أوّل ظهور تاريخي مسجّل لاسم العرب هو ما وجدناه على نقش يعود إلى زمن الملك الأشوري شلمنصر الثالث ابن الملك أشور ناصربال الثاني، ويعود زمن حكمه إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ويصف هذا النقش حملة قادها هذا الملك لإخضاع ما قُدّر أنه مشيخة قديمة قُرِئ اسم شيخها بأكثر من عشر صيغ مختلفة لكن الثابت هو (جندب)، ولا نحتار كثيراً في نقحرة هذا الاسم من الكتابات الأشورية لأنه قد استقرّ في أسماء العرب بهذه الصيغة، وأنتم تعرفون جندب بن جنادة، وهو اسم الصحابي أبي ذر الغفاري.

في هذا النقش وصفت هذه الإمارة أو المشيخة بكلمة عرب، وهي مفردة صيغت أيضاً بأكثر من عشر صيغ مختلفة، إلا أن دلالتها العامة لن تكون إلا كما نعرفها الآن، أي العربية، أو الأعرابية. حرفياً matu-a-rabi وكلمة matu الأكدية تعني أرض أو بلاد، والأصل فيها mada السومرية وقد استقرّت في العربية بالصيغة ذاتها: مدى.

لا يوجد الآن نقش أقدم من هذا المؤرخ بالقرن التاسع قبل الميلاد، إلا أننا نعرف أن الاسم الأكدي rabbu، (وهو الجذر الكنعاني والآرامي والعبري والعربي: رب rb)، قد نشأ عن الأصل السومري rib الذي يفيد دلالتين رئيستين: الأولى هي علو المنزلة، والثانية هي الترحال والذهاب.. إلا أن عدم وجود نقوش أخرى لا يعني شيئاً بالنسبة لإثبات وجود العرب أنفسهم، إذا سلّمنا جدلاً بأن اسم العرب قد عبّر في البداية عن تلك القبائل التي خرجت عن سلطان الأشوريين، قبل أن يصبح علماً تختص به قبائل الجزيرة العربية شمالها ووسطها وجنوبها، في وقت لاحق. ذلك أننا في الحقيقة إذا قمنا بتأثيل اسم

(عرب) في اللغة السومرية، وفقاً للمنهج الاسترجاعي المشار إليه، سوف نجد ما يلي:

1- الرحّل.. وتقابلها كلمة «ربو» بصيغة الجمع، في المصرية القديمة، وأقارنها بالجذر السومري rb، وهم البدو الرحّل. والكلمة أيضاً علم على جمْع قبائلِ اللوبيين التي غزت مصر في عهد مرنبتاح ثم رمسيس الثالث في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر ق.م. وفي هذا التشابه إحالة مؤكدة على التواصل الأفروآسيوي، اللغوي والتاريخي.

2- ذوو المنزلة الرفيعة، رؤوس القوم، الأرباب. كما استقرت أيضاً في (rb) الكنعانية والآرامية بمعنى رب القوم، رئيسهم، سيدهم.

3- الرعاة، سائسو المواشي.

4- القادمون من بعيد.. بإحالتها إلى ri في جذر رعي، وbi في جذر بين وبعد.

5- الكُثْر، لعددهم. وقارن الكثرة بالعربية «ربا».

6- الخلطاء، للجهل بأرومتهم.

7- المتوطّنون، تمييزاً لهم عمن يقدم لفترة مؤقتة ويعبر.

8- المقايضون، المتاجرون مع المحليين بيعاً وشراءً.[1]

نحن إذن نذهب إلى أبعد من نقش القرن التاسع قبل الميلاد، فإذا كان المدخل الوحيد لفهم أبعاد ما ورد على هذا النقش هو المدخل اللغوي، فإننا من باب أولى نستطيع العودة إلى السومرية، لإدراك ما هو غائب الآن بسبب عدم توفّر اللقى والمكتشفات الأثرية.. لكنني أشعر أن توفّر الشواهد الأثرية على ما ذهبت إليه من فرضيّات إنما هي مسألة زمن لا أكثر.

---

1 - انظر في آخر الكتاب مقالة: "من هم العرب.. تأثيل سومري".

ما كان يمنعنا – من الناحية العلمية – في السابق من أن نتحدث على هذا النحو هو القطيعة التي وُضعت عمداً بين السومرية وغيرها من اللغات الأفروآسيوية، لولا ذلك لكان البحث التاريخي اتجه اتجاهاً آخر، ولقرأنا الأصول بدءا من السومريين، أي بدءا من منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد بالنسبة لتدوين اللغة، وبدءا من الألف العاشرة قبل الميلاد بالنسبة للتكوين الاجتماعي للعرب.

لتشعب واكتظاظ هذا الموضوع، حاولت أن اختار أهمّ النقاط لأصلَ بينها، لتكون الصورة واضحة، وكتاب «ما قبل اللغة» يتناول بشكل تفصيلي جميع ما ذكرت، وكخلاصة أولى نستطيع القول أن العربيّة هي عَلَم جامع على السومرية والأكدية وفرعيها الأشورية والبابلية، وعلى الأوغاريتية والكنعانية والآرامية وغيرها في الشمال، كما يضم السبأية والمعينية والقتبانية والحضرمية وغيرها في الجنوب.. هي كتلة لغوية واحدة، نشأت عن كتلة حضارية واحدة، متصلة الأجزاء، حتى وإن تعددت مسمياتها، فتعدّد هذه المسميات لا ينفي على الإطلاق حقيقة اتصال حلقات وأجزاء هذه الكتلة.

أختم بالقول أن وجود العرب أنفسهم يعود إلى الألف العاشرة قبل الميلاد، وأن تدوين العربية بدأ منذ زمن أقدم بكثير مما هو متداول بيننا الآن، أي في منتصف الألف الرابعة، ولم يكن ذلك بخط الجزم، بل برقن المسماريات. وعندما أقول «العرب» فإنني أعني اسماً جامعاً للمسارات التاريخية الكبرى في الحوض الأفروآسيوي بما شهده من حضارات وأقوام منذ أن شهدت بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية أول التجمعات القارّة، غير المسمّاة آنذاك لغياب التدوين، وهي التي ستتحول تدرّجاً بعد ذلك إلى ما نعرفه من حضارات قديمة كان أولها ما عُرف باسم السومريين.

(3)

من هم العرب؟!

تأثيلٌ سومري

«وجد الباحثون أن أول نص ذُكر فيه العرب هو نص أشوري منذ زمن شلمنصر الثالث، أو الثاني، ملك آشور، والمقصود باللفظة أمارة أو مشيخة يتزعمها رجل بلقب ملك اسمه «جنديبو» (جَنْدِبُ)، وكانت تتاخم الحدود الأشورية.

واختلف العلماء في قراءتها على هذه الصورة: Aribi, Arubu, Arbi, Urbi, Arabi, Arabu, Aribu, Matu-a-rabi».[1]

لقد وردت كلمة عرب في نصوص أكدية في القرن التاسع قبل الميلاد، ويمكننا اعتبار أن الاسم الأكدي rabbu، (الجذر الكنعاني والآرامي والعبري والعربي: رب rb)، قد نشأ عن الأصل السومري rib الذي يفيد دلالتين رئيستين: الأولى هي علو المنزلة، والثانية هي الترحال والذهاب، وrib مكوّن أساسي لكلمات أُخر، مثل: sang-rib بمعنى القائد أو المبرّز في الجَمْع أي رأس القوم، وsang هنا هي: رأس. فالمعنى حصراً هو الرئيس، أو القائد الذي يتقدّم القوم، باجتماع الدلالتين معاً. ولهذا المقطع صيغة أخرى هي ri-ba التي تفيد العربية لفظاً ومعنى: ربا، بمعنى التعدد، الكثرة، والعلو، والإثنان صيغتان لاجتماع المقطع ri مع ib و/أو ba. (ri-ib، ri-ba)، وأقترح مقطعاً ثالثاً ذا صلة هو bu الذي يكوّن (ri-bu)، للمزيد من التدقيق في استقصاء الجذر الأكدي-العربي.

---

1 - د. علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، ص80 – 81.

ri (1)

(ونظائره: re_7، ri_6، rà، ir، ir_{10}، $e\text{-}re_7$، er) ويفيد الأفعال: يقود، يسوس، يرحل، يذهب، يرافق؛ يحمل، يحضر؛ يضع، يقيم [شيئاً في مكان ما]؛ يحرّك، يمزج؛ يجمع؛ يأخذ؛ يصبّ؛ يحوّل؛ يكتشف؛ يبادل [يقايض]؛ يوطّن. ومن معاني ri أيضاً: ينجب، يلد. والدلالة المصدريّة الأساسية هي الاسم: بُعد. أما كصفةٍ فهو البعيدُ. ونجده في عدة كلمات سومرية تفيد ما نذهب إليه من معنى، مثل:

a-ri-a: صحراء، منطقة، قفر، من a: أين + ri: بُعْد + المحدد a. [الإنجليزية area].

a-ngá-ri-in: مساحة من الأرض مسطحة.

da-ri: سائس (من da: يحمي + ri يُحضر). ومنها: da-ri-a: مسوس.

ib (2)

أي: مكان منعزل، ركن، زاوية.

بهذا فإن المعنى الأصلي للمقطع rib المتحول إلى الأكدية rabbu هو القدوم من مكان منعزل، وأيضاً الرعاة الأباعد (ri في جذر رعى وbi في جذر بعيد).

وله نظير مقطعي أقدم archaic هو ub بالمعنى ذاته، يؤلف العديد من الكلمات، مثل: an-ub-da : ودلالته الأولى هي الشساعة والامتداد في الإقليم أو الحقل، (an: سماء + ub: ركن + da:قرْب، وتفيد أيضاً معاً).

ba (1-2)

أي: قسم، جزء، أجر، حصة؛ يقتسم، يقسم، يقاسم، يؤجر، يوزع، يدفع (أجراً). والمقطع في الأصل مكون من (bi-a) [قارن: بَيْع]، وهو bi والمحدد a، وbi هنا هي: يهمهم [الإنجليزية hum]، يعوي، يصرخ.

وقد نشأ عن اجتماع المقطعين بأُخر، كلمات مثل: men-ri-ba وهي في الأصل: ri-ba (ربَا) أي الأعلى [الرابي]، وmen أي: التاج. فالمعنى إجمالاً هو: التاج العالي، ويمكن مقاربتها بالحكم المطلق، وتكتب الكلمة أيضاً men-rib-ba فتؤدي في هذه الصيغة: حاكم غير مفهوم اللغة، أو ذو رطانة. وأيضاً: [الرجال] ذوو البأس المؤجّرون. لكن men_4 التي تُرجمت غالباً بكلمة «تاج»، هي العمامة (tiara) لكونها من القماش، وبذا فإن المعنى هو: المعمّمون (أصحاب العمائم) الأقوياء، وواضح أن هذا الوصف قد أطلق على الأكاديين الذين قدموا من شبه الجزيرة، ويتضمن مظهراً أنثروبولوجياً يتصل باللباس الصحراوي.

إن المقطع ba مكوّن رئيس لكلمات أُخر، مثل: ab-ba بمعنى الأب، كما في العربية[1]، والزعيم، الرئيس، وأيضاً: السلف. ومن هذا اللفظ أمكن للسومريين نحت كلمات أُخر، مثل: ab-ba-uru أي المدينة- الأب، المدينة الرئيسة (العاصمة)، في صيغة أشبه ما تكون بما نعنيه بكلمتي البلد الأم.

(2-2) *bu*

هذا المقطع له صلة بما مرّ على مستوى اللفظ والإحالة، ويؤدي ائتلافه مع ri إلى اللفظ rib-bu القريب جداً من الأكدية rabbu. إن العلامة bu_5 تفيد التدافع (to rush around)، وأول تأدياته في المخيلة الأفروآسيوية ما نص عليه القرآن: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».

فالعرب في «الجذر» السومري هم المندفعون، المتدافعون في ترحالهم. ويمكن أن نعيد بناء صورة هذا التدافع على هيئة قبائل صحراوية أضطرت (لسبب بيئي غالباً هو الجفاف) إلى هجر مواطنها في صحراء شبه الجزيرة باتجاه الشمال بحثاً عن مواقع آمنة أكثر مدعاةً للتوطّن، وبذا يفيد المعنى الأولي لأصل مفردة عرب في الأكدية rabbu مؤثلة

---

1 - تماماً كما في اللهجة المغربية (عربيّها وأمازيغيّها) تعني ab-ba تماماً: يا أبي. مع ملاحظة أن a للنداء، ولها في العربية صيغ متعددة: أ، يا، أيا، أي.

سومرياً في المقاطع: rib، ri-ib، ri-ba، ri-bu، كما مرّ، المعاني التالية مجتمعةً:

1- الرحّل[1].

2- ذوو المنزلة الرفيعة [رؤوس القوم]،[الأرباب][2].

3- الرعاة، سائسوا المواشي. [= ذوو المِلك].

4- القادمون من بعيد[3].

5- الكُثْر [لعددهم][4].

6- الخلطاء [للجهل بأرومتهم][5].

7- المتوطّنون [تمييزاً لهم عمن يقدم لفترة مؤقتة ويعبر].

---

1 - «ربو» بصيغة الجمع [الجذر السومري rb]، في المصرية القديمة، هم البدو الرحّل لغةً. والكلمة أيضاً علم على جمْع قبائلِ الليبيين التي غزت مصر في عهد مرنبتاح ثم رمسيس الثالث في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر ق.م. وفي هذا التشابه إحالة مؤكدة على التواصل الأفروآسيوي، اللغوي والتاريخي. يقول خشيم أن «ربو نُقلت إلى اليونانية ليبو أو لوبو lybu، وكثراً ما يقلب الراء عند النقل إلى اليونانية لاماً، وقد نقلها العبرانيون في التوراة عن اليونان «لوبيم» بميم الجمع، ثم زادوا عليها هاءً فصارت «لهوبيم»، أما شامبليون فقد ترجم «ربو» المصرية إلى بدو، وليس ليبيين». أعتقد أن تعميماً وتبادلاً قد شملا الصفة واسم العلم، فأنتجا عدم التفريق بين قبائل الليبيين (شمال أفريقيا- غرب النيل) والبدو (شمال صحراء شبه الجزيرة).

2 - بمعنى (rb) الكنعانية والآرامية: رب القوم، رئيسهم، سيدهم.

3 - نرى ri في جذر رعي، وbi في جذر بين وبعد.

4 - قارن الكثرة بـ«ربا».

5 أوّل كامبس اسم Arabion (أرابيون بن مسنسن الثاني) برده إلى «عرب» في العبرية بمعنى «الشعب الخليط»، وقال إن هذه التسمية تطلق بصفة خاصة على بدو الصحراء، وقد رفض خشيم هذه الوجهة في تحليل الاسم، وهو محق في اعتراضه، لأن أرابيون اسم علم فرد، واللفظ ليس سوى عَرَبِيٌّ، منوّناً. إلا أن العبريّة «عرب» (علم على قوم أو شعب) صحيحة من جهة رجوعها (كما في غيرها من اللغات الأفروآسيوية) إلى السومرية، مع التذكير بأن للكلمة إحالات متعددة كثيرة احتفظت كلّ لغة بجزء منها، والعربيّة استثناءً تبدو الأكثر احتفاظاً بمجمل معاني الكلمة؛ راجع لسان العرب.

8- المقايضون [المتاجرون مع المحليين بيعاً وشراءً].

وجميع هذه الدلالات محتمل لعدم اختلافه أو تناقض إحالاته. يبقى أن هذا التأثيل لغوي محض، ويمكن لتعدّد إحالاته، مع عدم اختلافها، أن يقود إلى مقاربات أنثروبولوجية بحسب اتفاق الشواهد والمعطيات الأركيولوجية. فالعرب وفقاً للمدْوَنة الأكدية: رعاةٌ رحّل، جاؤوا من بُعدٍ، وهم كُثْر، أغراب لم يتصل بهم السكان المحليون قبل ذلك، قايضوا أهل الرافدين بما يحملون، ثم توطّنوا المدن، فكان منهم الحراس [العسس] والتجار [المالكين] ثم الملوك. وهم في ذلك يقابلون الزرّاع القارّين engar أو سادة الحقول (من en: سيد، مالك + agar حقل) وagar انتقلت إلى الأكدية ikkar: للدلالة على الأكرة وحرث الأرض).

وقد سجّلت العربية «رب» أغلب هذه الدلالات.

علامات الكتابة الصوتية

(النقل الحرفي - النقحرة)

الهمزة	ء	ʾ (ءَ = ʾa ، ءِ = ʾi ، ءُ = ʾu)
الباء الشديدة	ب	b
الباء المهموسة	پ	p
التاء	ت	t
الثاء	ث	ṯ
الجيم	ج	j
الحاء	ح	ḥ
الخاء	خ	ḫ
الدّال	د	d
الذال	ذ	ḏ
الراء	ر	r
الزاي	ز	z
السين	س	s
الشين	ش	š

الصاد	ص	ṣ
الضاد	ض	ḍ
الطاء	ط	ṭ
الظاء	ظ	ż
العين	ع	ʿ (عَ = ʿa، عِ = ʿi، عُ = ʿu)
الغين	غ	ġ
الفاء	ف	f
القاف	ق	q
الكاف	ك	k
الگاف	گ	g (القاف البدويّة أو الجيم غير المعطّشة)
اللام	ل	l
الميم	م	m
النون	ن	n
الهاء	هـ	h
الواو	و	w
الياء	ي	y

المحتويات

1- مقاربات جينالوجية في اللغة والحراك السوسيوثقافي الأفروآسيوي 7

2- محاضرة: «أصوات بابل».. قراءة جديدة للغات العاربة 27

3- من هم العرب؟ تأثيلٌ سومري 53



كانت الكتابة في معتقدات الشرق القديم استظهاراً للمقدّس، وكان الكاتب سيداً وهو الأقرب إلى الآلهة.

كان أشوربانيبال يفتخر بأن الألهة وهبته "علم الكتابة"، ولكنه كان أيضاً يتمنى الأكثر: أن يقرأ "ألواح ما قبل الطوفان" التي لم يستطع فكّ رموزها، لأنه لم يكن مهيّأً لمعرفة سرّ التكوين، الذي يعني أيضاً سرّ الخلود، وهو امتياز وُهب لأوتنَبشتِم وحده، وعجز حفيده كِلكَمش عن بلوغه ليعيش بقية عمره مقيّداً بشرط الموت كإنسان فانٍ.

أما مع اليونانيين فإن الكتابة تتحول إلى فعل مدنّس، سوف يصبح الكاتب عبداً، ويصبح فعل الكتابة تحقيراً لا يليق بالسادة الأثينيين، ونستطيع بدءاً من أفلاطون أن نتحدث عن "الكتابة المدنّسة"، كما يقول جاك دريدا.

مع الفينيقيين في البحر المتوسط سوف تصبح الكتابة فعلاً إنسانياً، وشرطَ معرفةٍ، وتكتسب بعداً حسيّاً جديداً.

تانيت

الثمن: 3 د.